مكتبة ٧٠٤

لن تستطيع معي صبراً

كريم الشاذلي

You Certainly Cannot Be Patient Enough With Me

دار اجيال

مكتبة | 704
سُر مَن قرأ

لن تستطيع معي صبرًا

مكتبة | 704
سُر مَن قرأ

كريم الشاذلي

مكتبة
t.me/t_pdf

DAR AJIAL
دار أجـــيـــال

إخراج داخلي : شيماء محمد

تصميم غلاف : عبد الرحمن مجدي

مراجعة لغوية : محمد عبدالله

رقم الإيداع 2020 / 20757

ISBN 978 - 977 - 773 - 070 - 9

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى 2021

هاتف : 01224242437 (2+)

karem.alshazley

الفهرس

تحذير	7
صباح الخير	9
إله أبي الذي أشتاق إليه	11
تقلُّب الأيام	19
الكلام المُرّ	25
أشباه الرجال	35
مخدرات رديئة	41
دينٌ على رأسه... بطحة	47
حكايتي مع نجيب محفوظ	67
السرايا الصفراء	75
أبناء الله وأحباؤه	83
أمور تحدث	87

الفهرس

أنا مثلك خائف	97
ذمم الناس	103
نعمة الجهل	109
يا عزيزي كلنا مكتئبون	115
العيش في كوكب مزيف	125
سعادة كافية	139
عزيزي المستهلك	149
أبناء الفرصة الثانية	165
واصطنعُتك لنفسي	175
الخروج الآمن	181

تحذير

هذا كتاب مزعج، كتبتُه في حين غفلة من نفسي، تركتُ بوابة القلب مفتوحة عن عَمد، وسمحتُ بحديث الوساوس أن يخرج منها بلا تحفُّظ.

لم أكتبه إرضاءً لأحد، ولا أحاول كسب ودّ أحد...

أنا لا أريد إلا شيئًا واحدًا فقط:

أن أستريح...

فلا يزعجني أحدكم حتى أُكمل قولي لنهايته.

مكتبة
t.me/t_pdf

صباح الخير

يقولون إن النائم لا يستطيع أن يوقظ نائمًا...

عليه أن يستيقظ أولًا، مع ما سيصنعه استيقاظه من جَلَبةٍ ستزعج النائمين.

هو وحده سيدرك أن الوقت قد تأخر، وأن نومهم صار خطرًا.

النائمون يفقدون أحاسيسهم، وإدراكهم، وينفصلون عما يحدث حولهم، وهنا يتحتم على مَن استيقظ أن يهزّهم برفقٍ أو بعنف... مقاومتهم له هي التي ستحدد ما يجب عليه فعله.

وإذا كان الوقت متأخرًا جدًّا، فينبغي ألا يقوم بمهمته تلك بعدما ينتهي من التأنق والتجهز... عليه أن يبدأ الصراخ حتى وإن كان هو نفسه لم يزل بين حال

وحال، ويجب ألا يغضب من غضبهم منه، ولا يكترث لانتقادهم عدم اتِّزانه؛ هناك أمر أهم من فكرة الإعراض واتهام الآخر بعدم تقدير ما يقوم به.

يقول العالم النحوي الكبيرابن جني:«إن العرب إذا أحكمت المعنى تساهلت في اللفظ».

وعليه، يحق لمن استيقظ أن يقول مقالته دون أن يشغل بالَه كثيرًا بضبط الألفاظ ما دام معنى كلامه واضحًا، ولا يسمح لنفسه بأن يهتم أو يتأثر بمن يريد أن يرى مقالته من خلال عين لم تَبرأ من نعاسها، أو تطمح في إكمال نومها!

يصبح الأمر أشد خطرًا إذا كان النعاس قد طال لأكثر من ألف عام، والنائمون يغطُّون في نومهم هربًا من مواجهة الواقع، ويسهر على راحتهم الموهومة أخبث الناس، ويغطيهم بردائه أجهلهم، ويمنع نور الشمس من إقلاقهم عصبةٌ ذات بأس.

هنا نحتاج لأن نفتح نوافذ البيت التي غطَّتها آلاف العناكب، ونصرخ فيهم أنْ استيقظوا، فالشمس هناك، وليلكم هذا موهوم، وما أنتم فيه أضغاث أحلام.

إله أبي الزي أشتاق إليه

أبي رجل طيب، طوال تاريخي معه لم أضبطه يومًا متلبسًا بجريمة الحسد، ولم أعرفه أبدًا ينافق أو يغالي، أو يخدع أحدًا.

أبي رجل بسيط، لا يحفظ من كتاب ربه إلا قصار السور، ولم يسابقني وأنا طفل إلى صلاة الجماعة، ولم يقرأ يومًا كتابًا في العقيدة، غير أنه حين يقول لي «ربنا كبير» أشعر حقًّا أن الله كبير.

أبي رجل عادي، لا تصل لحيته إلى صدره، ولا يقصِّر بنطاله، ولا يزيِّن كلامه بآية من كتاب الله، ولا بحديث من أقوال النبي الخاتم، لكنه وببساطة شديدة ينظر إلى السماء حال كربه وبلائه.

هو مثل أبيك، إنْ كان لك أب عادي، لا يخوض في أعراض الناس، ويمشي

بحماسة في حاجة كل ذي حاجة، ويتنهد في تعب محبَّب إلى نفسه وهو يخلع نعليه بعدما يشيِّع جنازة أحدهم مرددًا: «الله يرحمه كان رجلًا طيبًا»، فأشعر أن هناك ربًّا رحيمًا سيلقانا في آخر المشوار.

أحببت إله أبي كثيرًا، إله غير معقَّد، لا أحتاج إلى «كتالوج» كي أعرفه، إنه هناك في السماء، ينظر إلينا بعطف، يتسامح مع ضعفنا ونزقنا وتقصيرنا، ناره بعيدة تلتهم الأشقياء فقط، هؤلاء الذي يعيثون في أرضه فسادًا، ويجعلون حياة خلقه بائسة تعيسة...

أما جنته فلا جنبات لها، لا تحتاج إلى تخيلها ومعرفة ما بها، ثق بأنها فوق ما تتخيل، وما تشتهي، وما تطلب...

ثق به، وهو سيتولى كل شيء آخر...

وفلسفة أبي في الإيمان بسيطة، لقد حسم الأمر بشكل عفوي: ما دمتُ أؤمن بوجوده، فأنا أؤمن بأحقيته في القضاء والابتلاء والأمر والنهي، والطاعة تصبح هنا واجبة.

وعليه لا يتساءل أبي عن حِكمة الأشياء. إنه يؤمن بأن مداركنا محدودة، وأفهامنا محدودة، وحتى حزمة المشاعر والأحاسيس التي نحملها بداخلنا محدودة أيضًا، ولا تستطيع أن تعبِّر إلا عمَّا يُسمح به أن تعبِّر عنه.

جدال أبي عن فكرة وجود الله عبث. لو أنفقت عمرك لتثبت له أن وجود الله بالعلم والمنطق أمر صعب، فسيجيبك بأن إثبات نفي وجوده أمر مستحيل... هكذا ببساطة.

هو يرى أن الإله الذي يعبده لا يحتاج إلى كل هذا، لو شاء أن يظهر لظهر.

سرُّ الإيمان في كونه غيبيًّا، هذه حدود المسألة كما وضعها مَن نتَّجه إليه بأبصارنا، فلماذا نحاول خلخلة مبدأ لن يتخلخل، وإثبات شيء لن يُثبت؟!

أبي مطمئن لإيمانه، هو يعلم يقينًا أنه إيمان يساوي إيمان العلماء مُقدَّر عند الله، لكنه يدرك أن طريق العلم والفلسفة والمنطق، له رواد، فقرر أن يستغني عنه بإيمان العوام والعجائز، وهو في يقينه إيمان يساوي إيمان أهل العلم، غير أن لهم فضل الجهد والتعب والحيرة.

لا يعرف أبي فيلسوف الصوفية محمد بن الحسن النفري، ويقينًا لم يقرأ تصريحه عن أن «الجهل عمود الطمأنينة»، ولو قرأه فلن يرى نفسه المعني.

أبي يرى إلهه دائمًا، يرى آياته في كل موقف وحدث، فأيُّ عِلمٍ يحتاج إليه يقينه كي يستريح، وأيُّ جهلٍ هذا الذي يمكن أن يوصف به؟!

لم يحاول أبي أن يعيدني إلى إلهه عندما رآني أتوجه إلى إله آخر...

ذلك الإله المخيف المرعب، الذي يهددنا دائمًا، ويتظر حول نار نهمة لا تشبع، وتطلب دائمًا المزيد، شاهدني أبي ولحيتي تطول، وجلبابي يقصر، وتقطيبة جبيني تزداد اتساعًا، وأثر السجود يصبح أكثر قتامة.

لم يحاول أن يسخر مما أفعله، لعله أدرك أنني أخوض تجربتي هذه المرة بدافع الخوف، والخوف جلَّادٌ لا يرحم.

حفظتُ متونًا وقرأت كتبًا، فزاد إعجابي بنفسي ويقيني بأنني من الغرباء القابضين على إيمانهم كما يقبض الشجاع على قطعة الجمر، ضاقت دائرتي وصارت كلها تسعى لخدمة إلهي الجديد...

الصلاة أصبحت في مسجد بعينه يعرف إمامُه علم التجويد، وخطيبُ جمعته أصولَ العقيدة... شكل صلاتي صار أكثر ميكانيكية كي يلائم صفة صلاة النبي، أما روح الصلاة نفسها فلا أدري عنها شيئًا، لقد صليت لإله صعب، في الغالب عبادتي كلها بها دَخَنٌ ما: دَخَنُ نفاق؟ ربما، وساوس؟ جائز، أخطاء لا أعرفها ويجب أن أقرأ لأصل إليها؟ ممكن!

عوام الناس في نظري مساكين أو مبتدعون، الشاهد أنهم يسيرون في اتجاه

خاطئ، والإله الذي صرت أعبده لا يرضى بهذا العبث، فأحمد الله أنني من الناجين، ويزيد إعجابي بنفسي أكثر.

وفي جلساتنا الخاصة يقف شيخنا الذي يُعرِّفنا بالله ـ بإلهه أقصد ـ كي يخبرنا ببساطة بأنه مهما فعلنا فنحن في الأخير لسنا على ما يرام، وأن القدس لن تعود ما دامت أعدادنا في صلاة الفجر بهذا الشكل المزري، وأن الأمم تداعت علينا بسبب ذنوبنا، وأن ديننا مضطهَد، وإلهنا غاضب، وطريقنا طويل...

وأبي يطالعني من بعيد...

ينتظر مبتسمًا غير خائف، لقد قلت لكم إن أموره قد حُسمت منذ زمن، هو يعلم أن ربًّا نفخ فيه من روحه حريٌّ بأن يُجري معه حوارًا خاصًّا، حوارًا خاليًا من الفلسفة وعلم الكلام، لا يعتمد على مفردات وألفاظ، إنه يلقى في القلب شيئًا ما فيستريح فجأة، أو يقلق فجأة، وما ألقاه ربه في يقينه أن ولده سيعود في يوم ما، سيعود إليه، إلى إلهه الطيب الرحيم الكبير.

يعلم أنني سأعلم أن خوفي منه غير مبرَّر، وأن ذنوبي تجاهه على عِظمها ليست داعية للتجهم والرعب، بل للتقرب ومحاولة تصحيح المسار.

يعي أبي أن الطريق إلى الله يبدأ بالإحسان إلى خلقه، ومحاولة المرور عبر نفق الدنيا يجب أن تكون بأقل قدر من الخسائر التي علينا إلحاقها بالآخرين، الناس في دين أبي هم مختبر الإيمان.

لا، ليست الصلاة ولا الصيام... تلك عبادات لو لم تترك أثرًا في سلوك المرء فلا حاجة إلى ربه بها.

عندما يسمع أبي آيات المعيَّة يبتسم في طمأنينة، فإلهة «مع الذين اتقوا والذين هم محسنون»، وهو «مع الصابرين»، وهو معه أينما كان.

وتلك صفات إله يعطي دائمًا الأولوية لسلوك المرء تجاه شركائه في الحياة.

ذات ليلة سمع أبي في مذياع بيتنا الشيخ يرتل من آيات ربه «وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أُعِدَّت للمتقين»، فقال بصوت مسموع: مرحى، هذا أوكازيون كبير، لنستمع إذن إلى شروط القبول...

فتابع الشيخ «الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين»، فقال أبي وقتها: هذا أمر أصعب من الصلاة والصيام، غير أني قبلتُ، وزاد يقينه أن حياته بين الناس حاملًا هذه الصفات يعني أنه قد وافق على كراسة الشروط، وبدأ في التنفيذ.

يحترم أبي الشعائر، لكنه طوال الوقت يراها منحة قد يُساء استغلالها.

يتعجب كيف يؤمن البعض بطقوس لا تنضح في سلوكه!

ما زال ما زال الرجل الطيب غير قابل لفكرة أن البعض قد يقتات بدين الله، ويتلاعب به، ويستخدمه كغطاء.

أبي بسيط كما أخبرتكم، ولذلك حماه إلهه من أن يمر عبر أمعاء الحياة ليعيش أقذر مراحلها، لا يعرف الرجل وقد جاوز السبعين أن هناك نسخة أخرى من الإيمان قد طُرحت في الأسواق، وأن ما لاحظه على ولده ذات يوم أكبر من فكرة حماسة غالبة؛ إنها دوامة قاتلة، والخروج منها يحتاج إلى حكمةٍ لا إلى ذكاء، والذكاء وإن كان مكتسبًا في بعض جوانبه، إلا أن الحكمة رزق، يلقيها الله على أذهان البعض ويمنعها البعض الآخر.

إني أشتاق كثيرًا إلى العودة إلى إله أبي، إلهه الذي يغريه بالفضل والكرم والستر، ويقذف في يقينه أنه ورغم ما فيه يجب ألا يَقنط أبدًا من رحمته، وأن الجنة تستعد لاستقباله متى ما انتهت رحلته، وأنه عند ظنه...

وأبي دائمًا ما يُحسن الظن في ربه... وفي الناس.

تقلُّب الأيام

قالها بعفوية بعدما أنهى صلاته: «اللهم قرِّب بين أيامي»...

سألته عن كُنْهِ دعوته، فابتسم قبل أن يجيبني بأن ربه يُقلب الأحوال، فيرفع ويخفض من يشاء، يُعزّ ويُذلّ من يريد، سُنة الله في الأرض الحركة، وتلك الأيام يداولها ـ سبحانه ـ بين الناس.

وهو ضعيف، يعلم جيدًا هذا الأمر، لذا فإنه يخشى أن تجري عليه سُنة التداول بما يفوق جهازه النفسي على فهم ما يحدث، إنه لا يريد أن يرتفع عاليًا حدَّ الدُّوار والذهول، ولا أن يهبط إلى مستوى يدفعه إلى اليأس والقنوط، وبالتالي يدعو ربه أن يجعل أيامه قريبٌ بعضها من بعض، فينعم ويسعد ويحزن ويألم بشكل سلس لا فجأة فيه ولا ارتباك.

أخبرته أن الطمع في نعيم الله أمر حسن، وطلب الزيادة منه عبادة، فأضاف قائلًا: بشرطها!

شرط الزيادة دفع الضريبة، ضريبة نفسية لا يثق بقدرته على تحمل تكاليفها...

هو لا يرفض منحة الخالق إذ تتغشَّاه، ولا يعارض محنته إذا أتت، لكنه يدعو الله بما يقدر عليه، ثم يَدع ربه يدبِّر له، وظنه به ـ جلَّ اسمه ـ حَسنٌ على الدوام.

تأملت كلامه ثم أدرت عين بصيرتي في الحياة فاكتشفت عظيم ما دعا به ربه ورجاه...

رأيت صعود الناس وهبوطهم يشبه الطائرة أو الصاروخ، مَن يعلو علوًّا سلسًا في فضاء النجاح ودنيا المال والشهرة يكون هبوطه سلسًا في الغالب، وتكون «مطباته الهوائية» غير مزعجة أو مخيفة، أما من ينطلق كالصاروخ صاعدًا فسقوطه في الغالب يكون مأساويًا، اللهم إلا من تغشَّاه الله برحمته، ورزقه الحكمة، وأنعم عليه بنفسية تستوعب صعوده وهبوطه الاستثنائي.

أزمتنا أننا نفتح أذرع رغباتنا على اتساعها، دون أن نراجع أنفسنا ونتأمل، هل حقًّا نملك الطاقة لاستيعاب هذه الرغبات إذا قدَّر الله أن تكون واقعًا وحقيقة أم لا؟

ولعل هذه حكمة دعاء نبينا ﷺ الذي وثّقه القرآن «وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق»، ذلك ـ وفق ظني ـ أننا كثيرًا ما ندخل معترك الحياة بنيّات صادقة، كثيرًا ما نطلب من الله وفي نيّتنا إيفاء حق النعمة وزكاتها، غير أن نفسيتنا تتغير، جهازنا العصبي لا يصمد، أرواحنا يطالها التخبط، فيكون خروجنا غير صادق كدخولنا، ونكون فتنة للناس، فلا شيء يفتنهم كالتغير الذي يحدث في ضمائرنا، وتبدُّل الدوافع، والقيام بشرٍّ بعدما كنا دعاةً لخير.

دعونا نتفق أننا قوم بنا نزق وغرور، نُحسن الظن بأنفس لم تُختبر، وندّعي القدرة على استيعاب أي حدث، وفهم ما قد يجري مهما كان حجمه.

شخصيًّا ضبطت روحي تطلب بجشع، وللأسف حدث هذا كثيرًا...

تتمنى نعمًا، وترى أنها كفء لها، على الرغم من أن صمودي الحالي لنعمه التي أزدريها، حُمقًا، لا يبشّر بخير!

وكان الأَولى بي أن أقف كثيرًا لأتذوق كل نعمة، أتذوقها بلسان أيامي الذي حوى عجبًا، تذوُّقًا فيه تأمُّل لطعم ما أنعم به سبحانه، على الأقل لأكون متأهبًا لتذوُّق ما قد يزيد به ربي عليَّ في قادم الأيام، بدلًا من أن تبتلعني النعمة وتلفظني بعد مدة وتتركني على رصيف الحياة عِبرةً لبني البشر.

في مقتبل حياتي وفي بداية تأسيسي لدار نشر حَدَثَ أن تقابلت مع نجم كبير له متابعون بالملايين في جميع أنحاء الوطن العربي، فكان أن تعاقدت معه على إصدار كتابه الأول.

كانت توقعاتنا أن نبيع من هذا الكتاب أعدادًا كبيرة تصل إلى عشرة آلاف نسخة، غير أن القَدَر فجأنا نحن الاثنين ببيع أكثر من ربع مليون نسخة خلال الأشهر الثلاثة الأولى، مما يعني أن أرباحي وصلت إلى رقم يتقدمه ستة أصفار في الوقت الذي كنت أتمنى فيه نصف في المئة من هذا المبلغ كي أستطيع الصمود واستكمال حلمي، وفي سَكْرة الأرقام الكبيرة التي كنت أجنيها قام المؤلف بالتعاون مع بعض أصدقائي لتدبير فخٍّ لي تم على أثره سرقة المبلغ بالكامل وعدتُ معدمًا مرة أخرى، وبعد محاولات وصراع مع خصمي الجشع لاستعادة مالي باءت جميع محاولاتي بالفشل فعدتُ ثانية إلى إكمال عملي، وعوَّضني الله بأنْ فتح لي باب رزق في كتبي ونسيت التجربة المريرة تلك، غير أنّي أذكر وفي أثناء جلسة جمعتني ببعض أصدقائي أنْ سألني أحدهم عن كيف استطعت التغلب على مصيبة فقْدِ لقب مليونير وأنا في مبتدأ عمري، مؤكدًا أن كارثة كتلك كانت قادرة على تحطيم أي شخص؟، وكان ردّي عليه حينها أن السبب بسيط، وهو أنني لم أعش نفسيًّا حياة الأغنياء، كنتُ لصغر سني - ولعلها رحمة الله كذلك - أتعامل مع الأرقام على أنها أرقام، كنت مشغولًا بالنجاح ذاته فلم أنتبه إلى

حجم المكسب ولا خطورته، فلمَّا فقدته في ليلة كئيبة كان شعوري الداخلي حزنًا وألمًا على النجاح المسروق، أكثر منه حزنًا على حياة الأثرياء التي ضاعت منِّي.

ولا أدري الحقيقة هل لو حدث هذا الأمر معي الآن، بعدما صرت أكثر التصاقًا بالأرقام، وجشعًا للامتلاك، وتهورًا في الطموح، هل يا ترى سأستطيع التغلب على كبوتي وإكمال مشواري أم لا؟

هذا التساؤل هو ما يجعلني ممتنًّا لله سبحانه وتعالى أنْ وهبني هذا الابتلاء في وقت كان يعلم ـ جلَّ اسمه ـ أنني سأتخطاه، وجعل قطار التجربة يمضي على قضبان حياتي سريعًا دون أن ينقلب عليها، لاسيما وأخبار مَن يموتون بالسكتة القلبية أو ينتحرون عندما يخسرون تجارتهم أو أموالهم في البورصة تصل إلينا كل يوم عبر صفحات الحوادث.

وهو ما يجعلني كذلك أكثر فهمًا ومن ثم ترديدًا للدعاء الغريب المدهش بأن يقرِّب الله بين أيامي، فأنا لا أثق ـ حقًّا ـ بقدرتي النفسية على تخطي أي هزة عنيفة، غير أني كذلك أدعو الله أن يرزقني مع قضائه القدرةَ على الصبر والامتنان، وأن يجعلني عند ظنه الحَسَن بي.

فثقتي بنفسي ـ أمام تدبيره ـ ليس لها قيمة!

الكلام المُرّ

بعض الكلام مُرٌّ... غير أن الدواء مُرٌّ كذلك!

وأنا أؤمن بأهمية الكلام المُر، بأهمية أن نقول ما يجب قوله، لا ما يفضَّل قوله.

وعليه سأبوح لكم بما في نفوسكم بأننا نحيا حياة غير عادلة، مباراة يديرها حَكَم غير مُنصف، ونتيجتها النهائية محددة سلفًا...

الشر دائمًا سينتصر، والخير سيمضي ليداوي أوجاعه قبل أن يستكمل جولة ثانية، في الغالب سينهزم فيها كذلك.

لا يدري أحد حكمة ذلك، لماذا يحكم أبناء قابيل سطح الأرض؟ لماذا - وعلى مر التاريخ - يُدير الأشقياء اللعبة وينتصرون في نهاية المشهد؟!

لماذا دائمًا المفكرون والمبدعون والعلماء يجاهدون قوى أعلى منهم؟ لماذا لا يَصلون إلى غرفة القيادة؟!

لماذا يتعلم الخير لغة الهمس، ويتلفت يَمنة ويَسرة في حذر؟!

هذه الأسئلة ـ المشروعة بالمناسبة ـ قادرة على نفي الإنسان إلى عالم آخر، قادرة على إيصاله إلى حافة الجنون أو الانتحار، أو على الأقل الكفر بقيم الخير والحق.

تلك الأسئلة التي يتعثر في الإجابة عنها الذكي وينجو منها الحكيم...

لا أقول يجيب عنها، ولكن ينجو بروحه من ثقلها، ووطأتها.

شخصيًا آمنت منذ زمن بوجود إله، إرادة عليا تدير هذه الأرض...

ومع الوقت بدأت الاشتباك مع هذا الإله...

لماذا يسمح بوجود الشر؟ لماذا يقف صامتًا أمام غلبة الظلم؟ لماذا يبتلي المساكين؟ لماذا يُنعم على المحتالين؟

سحابة من الحيرة كانت تغيم على النفس دون أن يتردد صداها على لساني، ليقيني بأن مثل هذه الأسئلة ستصطدم بأحد عقلين: إما منغلق فينفيك إلى أرض الكفر، وإما ساذج فيضيف سؤالًا آخر للقائمة عن جدوى خلق الله للأغبياء في هذه الدنيا!

حتى عندما قرأت في كتاب الله، واجهتني مشكلة أخرى، أن الدين نفسه بعيد، لن تستطيع فهمه إلا من خلال أوصياء، وهؤلاء الأوصياء كذلك أصناف، أكثرهم لا يستطيعون مدَّك بأي إجابة منطقية، للأسف هناك مناطق في علاقة الإنسان بخالقه مُغلقة تمامًا، لا يحق فيها السؤال، والزهد في الإجابة عنها أولى.

عدت متلمسًا طريقي بحذر إلى كتاب الله، وحاولت أن أفهم الحكاية من أولها، حكاية وجودي، وما سبقه من أحداث، فوجدت ما يلي:

أولًا، يحكي الله ـ جلَّ وعلا ـ أنه قرر خلق خليفة في الأرض، فعبَّر الملائكة الذين أخبرهم بهذا الأمر عن عدم تفاؤلهم بمثل هذه الخطوة، مؤكدين أنه سيُسيل الدماء ويقوم بالجرائم.

هنا نبدأ السؤال الأول:

لماذا انتبه الملائكة إلى خطورة الأمر، واستغلوا فرصة اللقاء المفتوح مع ربهم كي يعبِّروا عن تخوفهم، ذلك التخوف الذي حدث وتم نقله لنا لحكمةٍ ما؟ مِن أين للملائكة أن تعرف أن هذا المخلوق الجديد سيُفسد في الأرض، يقينًا هم لا يقرؤون من كتاب القَدَر؟

وظني أن مربط الفرس يكمن في كلمة «خليفة».

الله سيرسل خليفة له على الأرض، والخليفة هنا سيحمل واحدًا من أخطر الأسلحة الفتاكة: سلاح الإرادة؛ إرادة الخير والشر، والحق والباطل، والعدل والظلم.

الإرادة التي قد تصبح منه وهبة وقد تكون وبالًا وإفسادًا في الأرض وسفكًا للدماء.

خليفة الله يعني أنه يملك تصريحًا من الله بفعل ما يريد، وفعلُ المرء لما يريد أمرٌ غير فعلِ ما هو مطلوب منه!

الله سيرسل بشرًا يملكون إرادة البناء والهدم، سيأمرهم بأشياء غير أنه سيسمح لهم بفعل أشياء أخرى تخالف أوامره.

إنها الأمانة التي ذكرها في قرآنه والتي خافت منها السماوات والأرض.

أمانة حرية القرار والفعل، والتي قد تصل إلى فعل الكفر به شخصيًا سبحانه، والاستهانة بتعاليمه، والاستخفاف بآياته، هو لن يتدخل حتى تنتهي فصول الرواية، تدخُّله سيكون وفق حكمة الحفاظ على العدل الكامل لا الفردي.

رغم كل شيء نحن مخلوقات خطيرة، بحاجة يقينًا إلى من يضبط رمانة التوازن كي لا نخرّب كل شيء، لكنّ هذا التدخل سيكون غير مرئي وغير سريع.

ثانيًا، أحدهم اعترض، مخلوق غريب مدهش، أحد الجن الأذكياء، لكن كما قلنا سابقًا الذكاء مهما كان خارقًا إلا أنه لا يمنع من الأخطاء الساذجة.

الحكمة إن غابت فذكاء المرء بلاء، وسيسلمه يقينًا إلى الغرور، وقد كان «إبليس» مغرورًا إلى أقصى حد، أكلت الغيرةُ قلبَه، خالف أمرًا بسيطًا وكان شجاعًا شجاعة تصل إلى حد التهور والغباء حين وقف ليعلن غضبه وعصيانه وتحدِّيه للخالق.

والأشد غرابة أن الخالق لم يقابل كل هذا التمرد بالغضب، وإنما أعطاه الحصانة الكاملة حتى يواصل تحديه حتى النهاية.

وتحدي إبليس لربه كان قائمًا على أن هذا المخلوق الذي تحتفي به أسوأ مما تظن، سأعبث بروحه.

سأجعله غير راغب فيك، ولا في جنتك، بواسطتي سيزهد في قربك... فقط، أعطني بعض الوقت.

وافق الخالق! وأخبرنا بما حدث، وحذَّرنا منه، غير أن هناك إشارة خفية في هذا المشهد الدرامي المهيب.

إشارة أن ربًا سمح لمخلوق بأن يتحداه في مُلكه تحتاج كثيرًا إلى أن نتفكر في حكمته عند إدارة الأمور.

قد لا نصل إلى منتهى الحكمة، لكن مِن حقنا أن نتأمل ونفكّر في ما حدث وغايته.

الشاهد أن المعركة بدأت من يومها، الله لم يخدعنا، أخبرنا بكل شيء، وتركنا على الأرض لنمارس إرادتنا الحرة. أخبرنا بأصل الأمر ومبتدئه ومنتهاه.

وأخبرنا أيضًا بأن الإنسان منّا كَفورٌ بنعمته، جَزِعٌ من اختباراته، متعجلٌ جني الثمار، هذه صفاتنا السلبية، غير أننا عنده الأفضل، والأقرب، والأحب، وأنه مع كل ما سيبذله إبليس من جهد، إلا أنه ـ جلَّ اسمه ـ جاهز متى أحب الواحد منّا كي يضرب خطة الشر في مقتل... ويتوب.

وعليه فإن سؤالًا عن سماح الله بوجود الشر أمر عبثي.

مَن وضع القواعد لا يجب سؤاله عن حكمتها، وهذا لن يكون إلا إذا آمنَّا بأن من حقه أن يختبرنا ويمتحننا، ويضعنا في هذا المضمار.

طبعًا أنا لا أجبر مَن لا يؤمن بالله على فهم ما فهمته، بالنسبة إليه ما أحكيه الآن قصة أسطورية تروق لطفله ذي السنوات السبع لا أكثر.

لكنّ عدم تصديقها سيسْلمه إلى أزمة أكبر، ولغز أكبر، وحيرة لن تنتهي... وهذا ليس موضوعنا.

موضوعنا أن الشر من عمر الإنسان، إن لم يكن أقدم، نحن مَن أتينا عليه لا العكس، ببساطة، الشر من حقه العيش والاشتباك، كما أنه من حقنا العيش والاشتباك، ولن ينتهي مهما دَعَوْنا الله، لأنه مُحصَّنٌ من الانتهاء بأوامر عليا، حتى وإن طال الشر ذات الله نفسه، وحاول النَّيل منه.

سيستمر، وسيخوض المعركة... أما عن لماذا ينتصر؟ فأظن أن للأمر أسبابًا منها:

أولًا، أن الشر يؤمن بنفسه أكثر من إيمان الخير بذاته وجوهره، وأتباع الشر أكثر شراسة من أهل الخير، ويخوضون معاركهم بحماسة تغلب بلادة أهل الصلاح.

وبتأمُّل، سنجد أن لياقة أتباع إبليس الذهنية ـ للأسف ـ أكثر مرونة من غيرهم، ويثقون بحولهم وقوتهم أضعاف ثقة أتباع الحق بالحق الذي يحملونه، والحياة ملعب ينتصر فيه الواثقون بأنفسهم، ولو كانوا على ضلال!

ثانيًا، أن الشر غير مقيَّد، وحيله لا تنقطع. ليست لديه قوانين تردعه، ولا قيم تكبِّله، وعليه فهو أكثر حرية في اختيار الوسائل، ولا يتمهل قبل تحديد الأهداف، كل شيء مباح في قانونه، هذا إنْ كان له قانون.

تلاقيه على الجانب الآخر مثالية غير عملية، ودهشة غير مبرَّرة، وذهول

من كسر الشر لقواعد أخلاقية منطقيٌّ ألا يَعترف بها... مثالية حمقاء يهجوها شوقي بقوله:

والشرُّ إنْ تلْقهُ بالخيْر ضِقْتَ به ذرْعًا، وإنْ تلْقهُ بالشرِّ ينْحسمِ !

وأمير الشعراء لا يدعوك إلى التخلي عن خيرك، إنه يأمرك أن تفهم الشر، وألا تقابله بالورد ما دام قد جهَّز ساحة حربه، وشَهَرَ سلاحه.

ثالثًا، يظن أهل الخير أن الله معهم تكتيكيًّا، بمعنى أنه سيتدخل في الوقت المناسب ليُصلح أخطاءهم، وعدم تنظيمهم، وغباء خطواتهم، وبالتالي لا يعطون المعركة قدرها من التركيز والتخطيط والعزم.

المدهش هنا أن جزءًا من خطة الشر تتمركز في استغلال هذا التصور الغبي لدى أهل الخير.

الشر يعلم جيدًا أنه غير قوي في الجملة، أخطاء المعسكر الآخر هي ما تمنحه غالب قوته.

رابعًا، يجهل أهل الخير مفتاح قوتهم الأهم، وهو أن الوقت بالنسبة إليهم عامل قوة استراتيجي، فدورة الزمن عندهم تبدأ مذ خلق الله آدم وتنتهي بنهاية آخر نسل من ذريته، وما نحن إلا لحظات في دورة التاريخ.

أزمة الخير أن أتباعه لا يقومون بواجب اللحظة، ينشغلون بالنصر البعيد ويهملون واجباتهم القريبة. يريدون قطف الثمرة سريعًا.

والحقيقة أن لدى أهل الخير دون غيرهم ما يمكن تسميته «الصبر الاستراتيجي»، والذي يعني طمأنينة كاملة لدورة الزمن.

الشر يريد حقه مقدمًا، لا يوجد في قاموسه معنى لرسالة أو قيمة عليا، هو الذي يجب أن يكون متهورًا ملولًا خائفًا، المدهش أن العكس هو ما يحدث عندنا!

الفيلسوف الصوفي محمد بن حسن النفري يقول: «من علامات اليقين الثبات، ومن علامات الثبات الأمن عند الروع».

وهذا ما يعطي بُعدًا جوهريًّا لحالة اليأس والهلع التي تنتاب أهل الخير وتصيبهم بالعصبية، إن الأمر عائد لارتباك ما في يقينهم، وهذا أخطر ما في الموضوع!

خامسًا، وهذه هي النقطة الأهم، أن الشر لا ينتصر دائمًا كما يحاول أن يسوِّق لنفسه، ذلك أن حِكمة المعركة الدائرة أنها خلقت الضمير الإنساني واختبرته وصقلته بمعانٍ كثيرة من النُّبل ما كان ليصل إليها إلا بتقبل ضربات كبيرة ومتواصلة من الشر.

الضمير هو الابن الشرعي لمعركة الخير والشر، وشراسة الشر هي التي دفعت الإنسان في كثير من الأحيان لتقوية جهازه المناعي، والتقدم، ومحاولة تجهيز أسلحته ليقاوم؛ في الوقت الذي صنع الشر فيه القنبلة الذرية صنع الخير اللقاح، وبينما الشر مشغول بنهب المستعمرات في إفريقيا كان الخير يؤسِّس لمبادئ إنسانية تتيح قواسم العيش المشترك.

لقد استخدم الله الشر ليفتح فمنا بقوة كما تفعل أي أم رحيمة كي تضع في فم طفلها الدواء... والدواء مُرٌّ، والطفل ساذج يبكي!

مكتبة
t.me/t_pdf

أشباه الرجال

مع كل كبوة تسقط فيها هذه الأمة، ينبري كتابها ومفكروها ومشايخها، لا سيما الإسلاميين منهم، ليهتفوا بعودة صلاح الدين.

مذ سقطت الدولة العثمانية والعيش في قصص البطولات الإسلامية جزءٌ لا يتجزأ من ثقافة القوم، يحاولون من خلالها إعادة الثقة مرة أخرى لشبابهم.

حتى اتسع الأمر منهم، وباتت هذه القصص جزءًا من المخدرات التي يتناولها الناس، وتخفف من بؤسهم، وتساعدهم على تجاوز محنتهم بالتعايش معها.

تخيل معي أن أمةً توقف مدُّ الاجتهاد فيها منذ أكثر من ألف عام تتسلى بالقصص والحكايات، وغالب مفكريها ومشايخها يستعيضون عن مواجهة

بؤس واقعهم برواية الحواديت، حتى إنني أتذكر داعية مشهور له أتباع بالملايين كان يقدم في شهر رمضان حلقات عن الثبات والابتلاء، غير أنه لم ينبس ببنت شفة عندما تمت جريمة قتل جماعية تبعد عن داره كيلومترات بسيطة.

الحواديت تعجب الناس، وصرخة «القدس تصرخ فأين صلاح الدين» محبَّبة وجميلة وترسِّخ لشعور الاضطهاد، وتجلب ملايين المشاهدين، والمتابعين، والإعجابات.

وأكبر جريمة يتم ارتكابها في حق هؤلاء الناس هو تكريس نغمة المظلومية لديهم، وإشعارهم دائمًا بأن الأزمة في شيئين:

إما الغرب الحاقد، والماسونية العالمية، والصهيونية المتحكمة،

وإما في خلل عقيدتهم، وضعف إيمانهم، وركاكة مبدئهم.

ولا يصرخ أحد بالأسباب الحقيقية، والتي يأتي على رأسها خيانة النخبة لمبادئها، والاشتباك في معارك تافهة عوضًا عن خوض المعركة الحقيقية، والاجتهاد في ما تجمد من فكرنا بدلًا من الدندنة حوله.

هذا الذي يصرخ ويدَّعي أن صلاح الدين قد تأخر، هل هو من الغباء بمكان كي لا يرى كل يوم من هو أفضل من صلاح الدين غير أنه مقيَّد بسلاسل

فكره الجامد، وغارق في معارك جانبية تحيط به وتؤخِّر صعوده، والتي يأتي على رأسها جملة المعارك التي صنعها له هذا الشيخ؟!

صلاح الدين هذا لم يكن بطلًا بسبب تدينه وصلاحة، تلك أمور سيفصل فيها الله يوم القيامة، بل كان قائدًا لأن معه رجالًا، معه جيش وسلاح، معه ما يجعله قادرًا على الانتصار.

وهل صلاح الدين يا قوم أشجع من علي بن أبي طالب...؟ لا والله.

غير أن علي حينما تولى القيادة أنهكه الأمر، رغم أنه أشجع من صلاح الدين، وأكثر منه فهمًا وفقهًا للدين، ويكفيه نَسبه وصحبته لسيد البشر.

غير أن علي كان محاطًا بأشباه الرجال، هل تريد دليلًا على كلامي؟ حسنًا، هذا قول علي لمن حوله ذات يوم كئيب:

«يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلَا رِجَالَ حُلُومُ الْأَطْفَالِ وَعُقُولُ رَبَّاتِ الْحِجَالِ لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكُمْ، مَعْرِفَةً وَاللَّهِ جَرَّتْ نَدَمًا وَأَعْقَبَتْ سَدَمًا، قَاتَلَكُمُ اللَّهُ لَقَدْ مَلَأْتُمْ قَلْبِي قَيْحًا وَشَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظًا وَجَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاسًا، وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالْعِصْيَانِ وَالْخِذْلَانِ حَتَّى لَقَدْ قَالَتْ قُرَيْشٌ إِنَّ ابْنَ أَبِي

طَالِبٍ رَجُلٌ شُجَاعٌ وَلَكِنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِالْحَرْبِ، لِلَّهِ أَبُوهُمْ، وَهَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَشَدُّ لَهَا مِرَاسًا وَأَقْدَمُ فِيهَا مَقَامًا مِنِّي، لَقَدْ نَهَضْتُ فِيهَا وَمَا بَلَغْتُ الْعِشْرِينَ وَهَا أَنَا ذَا قَدْ ذَرَّفْتُ عَلَى السِّتِّينَ وَلَكِنْ لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ».

ثم وهو يقول: «فَيَا عَجَبًا...عَجَبًا وَاللَّهِ يُمِيتُ الْقَلْبَ وَيَجْلِبُ الْهَمَّ مِنَ اجْتِمَاعِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ، فَقُبْحًا لَكُمْ وَتَرَحًا».

أعلم أنك ستراوغ، ستقول لي إنها منسوبة إلى الرجل وأني لا أملك ما أُثبت به يقينًا أنه قالها، وهنا سأحيلك إلى التاريخ لتقرأ عن معاركه التي خُذل فيها، وأزمته مع أشباه الرجال الذين كانوا محيطين به.

أعود لكلامي وأقول إننا بحاجة إلى أن نقصَّ على الناس حكاية علي بن أبي طالب لا حكاية صلاح الدين الأيوبي، لأمر مهم، وهو أننا خسرنا معاركنا لا بسبب شح الأرحام عن الإتيان بصلاح دين جديد، وإنما بسبب شُحِّنا عن نصرة الحق، والدفاع عنه.

هل تظن حقًّا أن مشكلتنا في البطل الملهم الأسطوري؟! يؤسفني إخبارك بأن ملايين من الأبطال مرُّوا علينا وذهبوا بآثار محدودة كنا جميعًا سببًا في محدوديتها وضعفها.

تربيتنا السلبية، وعدم تفاعلنا مع الخير، وتكاسلنا عن دعم أي صيحة إصلاح، هي السبب.

أنا آسف، لكنها الحقيقة، لقد أتت الأرحام بصلاح الدين بيد أننا لم ننتبه إليه. العظماء يُولَدون كل يوم لكننا نقتلهم.

تمهَّلْ وأخبرني يا صاحبي ماالذي دعا نبي الله يونس لهجرة قومه؟

الإجابة : اليأس من عدم دعمهم للحق.

وما السبب الذي دفع بموسى أن يلقي بألواح ربه على الأرض ويستشيط غضبًا؟

الإجابة : الوجع من تحوُّل الناس عن الحق.

وما المبررات التي دفعت النبي محمد ﷺ كي يرفع بصره إلى السماء لينقل لها حيرته (إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي)؟

الإجابة: تعجُّبه من موقف الناس من الحق.

الأمر برمَّته متعلق بتفاعل الناس مع الحق، إنهم يشتكون من أن البضاعة الرديئة قد ملأت السوق، رغم أنهم لا يدعمون البضاعة الجيدة، وأيُّ مصلح - ما لم يكن نبيًا أو قويًا بما يكفي - وارد أن يودِّع قضيته يأسًا وزهدًا حينما يرى

إعراض الناس عنه وبخلهم من دعم المبادئ التي ينادي بها، فللحق طاقة وقدرة على الحرب، وهؤلاء الأنبياء الذين ضربْنا بهم المثل هم خير دليل.

الموضوع ببساطة أن الناس لا يحتاجون إلى بطل أسطوري، إنهم بحاجة إلى أن يتحركوا ليصنعوا أبطالهم بأيديهم، ويدعموهم، ويوفروا لهم المحضن والرعاية، دون أن يذبحوهم في معبد الانهزامية الذي صنعوه لأنفسهم.

إننا بحاجة إلى أن نربِّي أنفسنا أولًا...

تربية تقوم على تعليم الفكر الحر، والنظر إلى الإرث الجامد، والاشتباك مع الحياة...

تربية لا تقوم على خلع الأبطال من سياقهم التاريخي، واستيراد قصصهم منقوصةً، وحكايتها قبل النوم.

نوم هذه الأمة مستحيل أن يستمر كل هذا الوقت مالم يقم عليه رجل يحكي الحواديت المسلية، ويُشعرنا أننا، بذنوبنا من جهة وشحِّ أرحامنا من جهة أخرى، سبب البلاء.

سنستمر في نومنا لا غرو...

سننادي في كل محنة على صلاح الدين وقطز ونور الدين...

غير أنَّ لا أحد سينادي على علي، لأن علي يحتاج إلى رجال...

مخربات رديئة

حان الآن موعد صلاة الجمعة حسب التوقيت المحلي...

عبارة تعني ببساطة أن موعد تأهبك وذهابك لمكان مقدس وسماع كلام غير ذي جدوى قد آن!

«منبر رسول الله» هذا المكان المهيب الذي رغم صولاتي وجولاتي على مسارح الجامعات وقاعات المؤتمرات في كل الوطن العربي لم تستطع أن تذهب برجفة لساني المتحدث هذا لينطق ولو بكلمة إذا ارتقاه.

لا أتخيل نفسي على هذا المنبر، هذه أمانة ثقيلة، في يقيني أن الوقوف هنا هو أشبه بتسليم نفسي طواعية إلى الله، أنا الذي دائمًا ما أهرب منه ململمًا خيبتي ونزقي، متخفيًا وسط زحام الناس والأفكار والهموم...

أهرب منه كطفل صغير يظن أن وضع كفه على عينيه يعني أن الآخر لا يراه! هذا ما أفعله، أظن أن اختبائي من ضميري يعني أنني أختبئ من الله كذلك، وفي يقيني أن الله يضحك.

ربٌّ تسامح مع فكرة أن يوصي أحدهم ذويه بإشعال النار في جسده ونثرها في كل مكان كي لا يستطيع الله أن يجمعها ويعذِّبه، يقينًا سيمرِّر نزقي الطفولي هذا.

هل يمكن لرجل يحمل كل هذا الذعر أن يقف على المنبر، وينمق كلامًا، ويلقيه على الناس في طقس ديني له مكانته عند الله؟! يقينًا لا.

هكذا أحسب الأمر، أتعامل بمهابة مع المنبر، غير أن تعاملي مع من يرتقيه قد تغيَّر منذ زمن بعيد، بخلاف قلة ممن ثبَّتهم الله، فخطباء الجمعة هم تجار مخدرات في المقام الأول...!

تخيل معي أن خطبة يتم التعامل مع قدسيتها لدرجة أنه لو قال أحدهم لصاحبه «أنصت» فقد لغا، ومَن لغا ـ من اللغو ـ فلا صلاة له، كما رُوي عن النبي ﷺ.

مما يعني أن الإنصات والتركيز والاستماع لهذه الخطبة أمر واجب، وعدم التعامل معها باحترام قد يُبطل صلاتك كلها.

صاحب المنبر ﷺ كان يُعلِّم الناس أمور دينهم ودنياهم، لقاء أسبوعي تُطرح فيه القضايا المهمة، ويشار فيها إلى خلل السلوك الجماعي، حتى إن النبي كان يصرخ في أوقات كأنه مُسعر حرب، التحامًا منه مع الأحوال والحوادث والمواقف اليومية، الدينية منها والدنيوية.

أما اليوم، فأهلًا بك وسهلًا في جلسة قد تطول أو تقصر، للحديث عن أي أمور دون الأمور التي تمس حياة الناس، وخوض معارك غير التي تهمهم، وإلقاء نصائح باردة تنافس برودة مبردات الهواء التي تبرَّع بها أهل الخير لتلطيف الجو.

خطيب الجمعة سيحدِّثك عن التبرج، والتقصير في جنب الله، ومفهوم العبودية، وفضل صلاة الجمعة، ومعجزات النبي وفضائله...

غير أن النبي ﷺ، لو كان بيننا، لا أظنه أبدًا سيفوِّت فرصة كهذه ليتحدث عن احترام المرور، ونقد الفساد الإداري والرشوة، واستنكار غياب النخوة التي جعلت نساءنا يخفن وهن يمشين في الشوارع بسبب نسب التحرش العالية.

سيتحدث عن حق المطلقة وترهيب من يحاول مضايقتها، وإكرام الأرملة واحترام رغبتها سواء بعدم الزواج أو بالزواج ممن تريد، ويُرهب مَن سوَّلت له نفسه أن يسرق إرثها بحجة العُرف.

لو كان بيننا، لتحدث عن خطورة عمل «شير» على وسائل التواصل الاجتماعي لمعلومة أو محتوى غير واثق من صحته، وكتابة منشورات كئيبة تبشِّر الناس بهلاكهم، والنظر إلى البشر وفقًا لمكانتهم الاجتماعية، وماركات سيارتهم، وهواتفهم، وأحذيتهم!

لو كان بيننا لتحدث عن الله فحبَّبنا فيه، وعن أنفسنا فأيقظ ضمائرها، وعن الحياة فضبط رمانتها، وأخرجنا من مسجده في شوق للعمل، وأمل في العودة الأسبوع اللاحق.

لكنه ليس بيننا، ويتقافز على منبره ﷺ غيرُ قليل من السُّذَّج، ويُمنع من الصعود إليه أيضًا غير قليل من الصادقين المخلصين.

نعم، الفكرة ليست في أن رجالنا وشيوخنا غير مؤهلين لحمل الأمانة، الفكرة أن المنبر هو الآخر مسروق، سرقه الغوغاء ومَن خلفهم، واختاروا لنا وجبات باردة من الموضوعات لا طعم لها ولا رائحة.

يبيعون مخدرات ذات صنف رديء، يمكنك اختصارها كلها في عبارة قالها ابن أحدهم يومًا بعدما سأله أبوه عن موضوع الخطبة، فقال بتردد: «لا أدري، غير أنه كان يؤكد أننا لسنا على خير»!

نعم، هذا الصنف من المخدرات رديء جدًّا، فكرة أن نجلد أنفسنا، ونكره

الدنيا، ونغلق علينا أبوابنا، ونبكي على خطايانا حتى ينتهي اللص من سرقة ما يريد، هو أقبح أنواع المخدرات على مر التاريخ.

قد يختلف اسمه من دين إلى آخر، لكنك ستجده في الكنائس والمعابد كما في المساجد وعلى المنابر.

أرجوك خفِّف من غضبك وأجبني، أنت وأنا وكل واحد منَّا سواء كان متدينًا أو غير ذلك قد سمع على الأقل آلاف الخطب، أليس كذلك؟!

بالله عليك، كم مرة سمعت أحدهم يعترف بأنه لولا كلمة سمعها من إمام الجمعة لما كان مستقيمًا، أو أن خطبة جمعة ما أعادته إلى الرشد، أو ذهب باكيًا إلى زوجته التي ظلمها، أو أخته التي قاطعها، أو صديقه الذي خانه، أو عميل لديه قد غشه ليعيد الحقوق إلى أصحابها بسبب ضميره الذي صحا في وسط خطبة ما في مسجد ما مع إمام ما؟!

أتمنى ألا تأخذك الحماسة فتخطئ وتردَّ عليَّ بأن هذه الأمور ليست من مسؤوليات خطيب الجمعة، أنت أعقل من هذا بلا شك.

أذكر قبل سنوات أنَّ حظي العاثر ألقاني كي أسمع خطبة جمعة في أحد المساجد الكبرى بدولة عربية، قبلها بأيام كان دولة أخرى شقيقة تُقصَف من

دولة غربية عدوانًا وزورًا، ومشاهد الدمار التي تبثها شبكات الإعلام تملأ قلوبنا غيظًا وغضبًا.

كانت مشاعر الناس ملتهبة، وانكسار نفوسهم غالبًا، فذهبنا إلى مسجد من مساجد الله، ونظرنا إلى منبر رسول الله ﷺ، فصعد شيخ ظاهره أنه يعرف الله ورسوله أكثر منَّا، ثم تحدث بصوت جهوري كأنه مسعر حرب - وفقًا لما يظن أنها من سُنن خطبة الجمعة - ثم صرخ فينا أن تلقيح النخيل أمر واجب، ومن يتهاون عنه عاصٍ لله...!

وبعدما قال قولته هذه استغفر الله لنفسه ولنا... ثم أقام الصلاة!

دينٌ على رأسه . . . بطحة

الفارق بين الواثق من نفسه والمُثقل بها، أن الأول مطمئن لما هو عليه، والثاني قَلِق مما هو فيه، وشتان بين من يمضي معتزًا بأملاكه النفسية والفكرية والعقدية، ومن يحاول دائمًا مكابدة مشقة الادِّعاء والمدارة والتجمل.

مُرهِقٌ جدًّا أن ينصر المرء فكرةً كل ما يربطه بها الإرث، مزعجٌ أن يهتف لقضية منسوبةٍ إليه، مؤلمٌ أن يدافع عن عقيدة لم يقف على حدود عظمتها بعد...

أيُّ مشقة تلك التي نعانيها بانتمائنا لدين لم نَرَه إلا وهو يدافع عن نفسه، نحمله ونحمل معه حزمة تُهمٍ تشغلنا بالرد عليها فتُنسينا واجب التفكر والتأمل في الدين ذاته،في فكرته وروحه وفلسفته وعظمته؟!

أخبرني، منذ متى وأنت مشغول بدحض فكرة أن الإسلام دين ذكوري، وأنه لا يحترم المرأة، وجهَّزتَ حججك بأن التعدد قضية قد أُسيء فهمها، وأن المرأة في حالات كثيرة ترث ضِعف الرجل؟

وكيف تعاملتَ مع تُهمة أن نبيك دموي، ودينك المسلح قد انتشر بالسيف؟ ومتى تحديدًا سعدت بخبر أن الإسلام انتشر في دول شرق آسيا والهند عن طريق التجارة وتعامل المسلمين الحسن، وجعلت هذه المعلومة هي ردك الوحيد على تهمهم تلك؟

في أي مرحلة قررت أن تتبنى موقفًا محايدًا تجاه فتنة الصحابة وقررت أن الاعتزال أولى، وأن علي ومعاوية أسيادك رغم ما كان بينهما؟ وهل استقر يقينك على هذا حقًا ورأيت ما حدث على أنه من جملة الاجتهادات الخاطئة، أم أن هناك ما يقلق طمأنينة يقينك؟

سؤالي بوضوح هو: متى قررت أن تتصالح مع فكرة إيمانك بدين يحمل فوق رأسه جرحًا وعِلَّة، وأنك مُطالَب بأن تدافع وتماري وتتكلف كي تثبت طوال الوقت أنه غير ما يقولون؟!

وهل فكرت يومًا أن تضع كل هذا الجهد المرهق وتحاول التأمل في فكرة الدين الأصيلة، وتجتهد في فهم عقيدة صرت محسوبًا عليها ومكتوبة عليك؟

صدِّقني، إن سؤالي، وحديثي، وتعجبي، واستنكاري، وجهتها لنفسي قبل أن أطرحها عليك، وتأملتها قبل أن أخطُّها لأن قضيتي هي ذاتها قضيتك، وميراث الوجع مقسَّمٌ علينا بالتساوي.

وعليه قمت بطرح بعض الأسئلة على نفسي، واجتهدت كي أجيب عنها.

دعْني أخبرك بها:

السؤال الأول: هل من تمام الإيمان، الاعتقاد بضعف الله الذي أعبده؟

ومعنى سؤالي: هل من المنطقي أن أعبد ربًّا أرى أن رسالته وتعاليمه وأوامره بها عِوج أو خلل؟ الإجابة بـ «نعم» تنسف الاعتقاد ذاته، والإجابة بـ «لا» تعني ببساطة أن الرسالة التي آمنت بها مستحيل أن يطالها عَوار أو بها ما يمكن أن أخجل منه.

وإذا ما كانت الرسالة نفسها تحتفي وتبارك الإيمان البصير، والتسليم العاقل، وتأجُر أصحابها إنْ هم أعملوا فكرهم، إذن فأنا مأمور حينما أرى ما لا تستسيغه أفكاري أو حتى ذائقتي الفكرية أن أفكر وأسأل وأصارح بما في داخلي حتى يزول الغموض وتتضح الصورة، وأيُّ توجه يأمرني بالتزام الإيمان الأعمى هو ببساطة ضد قيم الرسالة التي أطالَب بالإيمان بها.

أضف فوق ذلك، أن الإله القوي الذي - كما أسلفنا - سمح لإبليس وأتباعه بأن يكفروا به جهرًا وتحت سمعه وبصره، يقينًا لن يصبح دينه في خطر حتى وإن كان مضطهدًا، والتعامل باحترام مع جلال شأنه يقتضي ألا نتعصب ونتهور ونصبح رد فعل طوال الوقت، يجب ألا أبدأ رحلة إيماني به بدخول معركة مع أعدائه، دون حتى أن أفهم ماهية هذا الدين وأفكاره المؤسِّسة، والتوجه الذي يدعو إليه.

السؤال الثاني: مَن الذي يجب عليه خدمة الآخر، المؤمن يخدم الدين أم أن العكس هو الصحيح؟

ببساطة شديدة، جاء الدين ليخدم الإنسان، ويمهِّد طريقه، ويقيه من زلل الطريق.

جاء ليهذِّب نوازع الأَثَرة والأنانية وحب النفس، ويفتح أفقًا أكبر لقيم التسامح، وفعل الخير، وحب الناس، والدعوة للعدل، والتضحية من أجل تطبيق كل هذه القيم.

الدين ليس صنمًا يحتاج إلى قرابين، إنه خطة عمل، إنْ جاز التعبير.

فكرة كبرى تحمل في داخلها أفقًا واسعًا يحتوي الإنسان فردًا والإنسانية

بعمومها، وعليه فهو لا يحتاج إلى تابع متعصب يحمل الناس على المبايعة ويفرح بكثرة السواد.

لا يحتاج إلى أن ندافع عنه بنزق فنخطئ ونلصق أخطاءنا به ونبرِّرها بالدفاع عنه والغيرة عليه.

الدين في حقيقته منحة في عالم لا يعترف بالمنح المجانية، طمأنينة وراحة وسط مجتمع مادي هو أحوج لمن يربت عليه ويطمئنه، الدين فضلٌ من الله لعبيده.

وشتان يا صاحبي بين نفسية تتعامل مع الدين على أنه رمز فتدافع عنه بتعصب متهور طوال الوقت، وبين من تتعامل معه على أنه منحة من الله طوبى لمن فهمه واحتفى به؛ الأول سيشعر بالتهديد إذا ما وجد أحمق يهاجم دينه، بينما الآخر سيأسف ويحزن لبعد الناس عن رؤية ما يصلح حالهم.

لقد سجل القرآن الكريم مواساة رب العزة لنبيه قائلًا:

«فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا»، و«باخعٌ» تعني الإجهاد الباعث على المشقة والهلاك، وهذا لا يتأتى إلا من قلب يحب الناس ويريد لهم الهداية والراحة والنجاة.

استخدم النبي ﷺ الدين لينقذ الإنسان، ثم دار الزمان دورته ليأتي أقوام يدفعون الناس إلى الجحيم بحجة إنقاذ ما يظنون أنه الدين!

السؤال الثالث: كيف يمكن الجمع بين العقل العملي الناقد والدين بعقائده الغيبية وعباداته التي من ضمنها السفر للطواف حول بيت من حجارة؟

وهذا هو أتفه سؤال قابلني، ذلك أن حكم العقل في فهم الحياة لم يصل إلى مستوى الإجابة عن الأسئلة الكبرى بحسم، فلا هو استطاع الجزم بدقة منشأ الإنسان، ولا هو قادر على إجابة السؤال المحيِّر عما سيحدث لنا بعد الموت، وإلى أين تذهب أرواحنا بعد مفارقة الجسد، جميع الإجابات غير شافية.

هناك أسئلة يجيب عنها الدين لا يقدر العلم على دحضها، والدين الصحيح مستحيل أن يتعارض مع سُنة كونية أو حقيقة علمية، وإنْ حدث هذا فالأمر بسيط، إما أن النظرية غير دقيقة وإما أن نسبتها إلى الدين غير صحيحة.

شخصيًا لم أواجه مأزقًا في هذه الجزئية، ربما لأنني لم أقتنع أبدًا بفكرة محاكمة الدين عقليًا أو علميًا، لا أضطرب حينما يشكك العلم في وجود الله، ثمة أشياء كثيرة لم يُحِط بها العلم خُبرًا فهل أنزعج حينما يفشل في الإحاطة بعلم الخالق؟!

دعْكَ من أن العلم كلما ارتقى خطوة لأعلى يعلِّمنا أن نتمتم دائمًا بعبارة

«سبحان الله»، وكل كشف أو إنجاز يُحسب له هو في حقيقته دليل على وجود إرادة عليا تدير هذا الكون وتنظم شؤونه...

أما العبادات والطقوس والإيمان بالغيبيات فهي دلالة من دلالات العبودية.

اعتراف بالتسليم والخضوع. عقد يتجدد بيني وبين خالق آمنت به بأنني مُقرٌّ بسلطانه وحوله وقوته، أفعلها بروحي لا بعقلي، فعقلي قد اطمأن للفكرة منذ زمن، ومن حق الروح أن ترتاح في رحابها.

السؤال الرابع: ذائقة الزمان الحاضر لا تستسيغ فرض الفكرة بالقوة، والإسلام انتشر بالغزوات والفتوحات، وحضارة اليوم استقرت على دعم المرأة ومساواتها بالرجل، والدين في مواضع كثيرة يضع النساء دون الرجال، حتى بات الدين أشبه بمحمية ذكورية تسمح للرجل بالتعدد وأخذ ضعف الميراث، وميَّزته بالقوامة وحق اتخاذ القرار!

وهذه أسئلة مهمة، لا تأتي أهميتها من قيمتها وإنما من انتشارها وترددها، ومبدأ القول فيها أن بلية الإسلام الكبرى في تعطل عجلة تطوره، ووقف الاجتهاد، وتجميد العقل، حتى أصبح العقل الجمعي للناس صلبًا عنيفًا، فاقدًا للياقة، وأي تيار سيحاول أن يُعمل عقله منبوذ لأنه ببساطة مبتدع يريد هدم

أركان الدين وثوابته، بل صار العلماء السابقون المجتهدون أصحاب حصانة وقدسية، ممنوع نقد أفكارهم أو الاستدراك عليها، والخلاصة أن قداسة الدين اتسعت حتى شملت آراء بشرية، وعلماء لهم وعليهم، وأطروحات لم يتجرأ صاحبها - مع عِظم إيمانه بها - أن يدّعي عصمتها وقت طرحها للناس.

والنتيجة: يقينًا الارتباك! أهل الإسلام لا يفعلون شيئًا إلا الدفاع، غالب جهدهم متّجه لدحض الشُّبهات، ولذلك جملة الأسئلة السابقة هي شيء من شغل المسلمين واهتماماتهم، ولو أنصفوا لَأنفوا من وضعهم في معسكر الدفاع، وتقدموا خطوات أهم نحو مناقشة الفكرة بلا تحفز...وَلَوافقوا ببساطة وأريحية على عبارة أن الإسلام دين السيف، لكنه لم ينتشر بالسيف!

هو ببساطة دين يؤمن بالقوة، لاسيما وهو يؤسس دولة، وهو يتعرض للعدوان والجبروت.

أيُّ حماقة تلك التي يسحبونك إليها لترفض المنطق ردًا على ادِّعاء خائب؟!

إن للحرب والسيف أدبيات وقواعد في الإسلام، نُظم تضبط شهوة الدمار والدم وتذكِّر دائمًا بأسباب الحرب ودوافعها.

هل أنا حقًّا بحاجة إلى أن أذكر عشرات المقولات والحِكم وتصريحات لقادة كبار يتحدثون فيها عن أهمية القوة، وضرورة توفر الحماية للحق كي ينتصر، وغيرها مما يسعدنا مجيؤه على لسان الإسكندر، ونابليون، وتشرشل، وروزفلت، وهؤلاء بالمناسبة قادة حرب، ولهم تماثيل وآثار وفخر بما حققوه... بالسيف؟!

قد أقبلُ أن يتساءل أحدهم عن سبب حمل النبي محمد للسيف بينما أخوه عيسى لم يفعلها.

سنأتي بالفكرتين، وظروفهما، والواقع الذي عاش فيه كلاهما عليهما السلام، ثم نفهم، ونشرح، ونأخذ ونردّ...

قد أقبلُ أن يخالفني أحدهم في أن تسليح الدول غير تسليح الأفكار.

لنتأمل معًا، هل حقًّا كانت الفكرة ذاتها مسلَّحة أم الدولة التي تعيش الفكرة في رحابها؟

وهل كان التسليح موجَّه إلى عقائد الناس لإرغامهم على تغييرها أم لتوفير الحماية أمام حرية الاعتقاد؟

وهل الفكرة المضطهَدة التي تم خنقها لما يقارب عقد ونصف قد مارست الطغيان بعد تمكنها أم لا؟

المهم أن تعيش الواقع الذي تودّ محاكمته، وترى تداعياته، وتقف على جوهر فكرته.

ذائقة الزمان الحاضر هي تطور إنساني حديث، وأنا أعترف بأنها قد تخطت جمودنا، وأأسف على خيبتنا وجريمتنا التي ارتكبناها في حق الكنز الذي وُهبناه.

ذائقة الزمان الحاضر التي ترفض التعصب والجبروت، وتنادي بالمساواة والحرية، قد سبقتها أدبياتنا المجمدة، ولكن ماذا تفعل فكرة يخنقها أصحابها؟ ما حيلة الخير إنْ حمل لواءه أتباع مهازيل؟!

أنا لم أقرأ الإسلام من باب الضعف أو بذهنية المدافع المتحفز، ولم أتحمس له بعاطفتي فقط، لقد فكرت فيه، ووقفت على ما أراه منظومة كاملة متماسكة بشكل فريد، ولذلك لا تزعجني كل الأسئلة السابقة مع انتشارها، أمرها محسوم بالنسبة لي، وأنا مطمئن لما ذهبت إليه، ومستعد للحوار حوله... بكل بساطة.

السؤال الخامس: هل للإسلام شكل وهوية، نمط وهيئة يجب أن يكون عليهما المسلم كي نتوسم فيه الصلاح والقرب والهداية؟

لو كان لي أن أدَّعي علمًا بالحياة، فإنَّ مما وعيته من دروسها أن الناس حينما

تيأس من صنع أثر في حاضرها تنشغل بماضيها عوضًا عن مستقبلها، وتتلمس كل أثر عزيز من السابق لتثبت لنفسها أنها مضطهدة، تداوي انكسار اليوم بمجد البارحة، وتحاول أن تستخرج منه كل زخرف لتلبسه، يهتمون بالهوية والشكل دون التأمل في الجوهر والمضمون، ذلك أن النظر في الآثار لتلمُّس الحكمة يحتاج إلى عقل هادئ منفتح، يحتاج إلى ثقة وطمأنينة، واليأس لا يعطيك إلا البلادة والخوف.

وبعد زمن من البحث عن هوية أعتزُّ بها، أدركت أن هوية الإسلام الحقيقية في أفكاره، وهيئته الخاصة نراها في توجيهاته وتعاليمه: قُلْ بلسانك ما شئت ما دام خيرًا، والبس ما تريد على شرط عدم التبذير أو الإسراف، وكُلْ ما تحب ما دمت معتدلًا، اربح مال الدنيا بالطرق المشروعة وأدِّ حق الفقراء والمساكين فيه، احفظ سلوكك من الحرام وخبيئة نفسك من الخبث والسوء وكن ما تريد أن تكونه.

هوية الإسلام الحقيقية أن يكون ضميرك حيًّا، وشعورك بالناس كبيرًا، وإدراكك لدورك وحجمك في الحياة يقظًا.

النبي محمد ﷺ تحدث مع أصحابه ذات يوم عن خبر كان شاهدًا عليه وهو شاب في العشرين، أخبرهم عن جماعة من أفاضل مكة قرروا أن يؤسسوا حزبًا

يساعد المظلوم ويرد الحقوق لأصحابها، قال: «لقد شهدتُ في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أُحب أنَّ لي به حُمُر النَّعم ولو أُدْعَى به في الإسلام لَأَجَبْتُ».

عاديٌّ أن يحتفي رجل كريم بأناس كرماء سابقين، منطقيٌّ أن يثمِّن نبي خطوة خطاها أحدهم في سبيل الخير...

لكنَّ الباعث على التأمل هو قوله «ما أُحب أنَّ لي به حُمُر النَّعم ولو أُدْعى به في الإسلام لَأَجبتُ»، وهل يحتاج نبي الإسلام إلى منظمة، أو هيئة، أو جماعة خارج إطار الدين الكامل التام الذي جاء به ليتعاون معها في نشر قيم موجودة في دينه؟ هل قالها من باب التواضع، أم من باب الاحتفاء، أم غير ذلك؟

أنا أرى أنه قالها لسبب غير ذلك، قالها ليخبر أتباعه أنْ افتحوا أذرعكم وعقولكم وعانقوا الخير متى ما كان، ضع يدك في يد كل شخص يريد أن ينشر النور دون أن تُشغل بالك بأصل عقيدته، هو ﷺ كان سيفعلها، وجوهر هويته كان سيظهر في صدقه، وحماسته، وانفتاح عقله، ونُبل قيمه، واعتدال مزاجه تجاه الاختلاف والنقد والنقاش.

لو كان متعصبًا ﷺ لتمسك بالهوية الشكلية، لرفض أن يضع يده في يد كافر، أو يجلس مع أناس يؤمنون بدين يرى ضلالَه.

لو كان غير واثق من عمق وقيمة ما يحمله لَخَاف أن يكون رابع ثلاثة،

ولأَغْلق الباب على فكرته ودعا إليها المؤمنين بها فقط محتجًّا بالحفاظ على نقائها وهويتها...

لكنه كان عظيمًا يحمل فكرة عظيمة، لا يحتاج إلى سلاح الهوية كي يحافظ عليها من إغراءات الخارج، فالخارج أمام ما يحمله - ومهما كان بريقه - ضعيف جدًّا، ومسكين جدًّا.

هذه هي هوية الإسلام التي أفهمها، ومنهجه الذي أرتاح إليه.

السؤال السادس: علَّمونا أن أحد أدوار المسلم الدعوة، وأن المؤمن الحقيقي نشطٌ في هداية الناس، كما أن عقيدة الإسلام تستلزم منِّي تحديد موقفي تجاه عقائد الآخرين، والحسم في تأكيد كفرهم ما داموا لم ينطقوا الشهادتين، موالاتي فقط للمسلمين وتبرُّئي يجب أن يكون واضحًا تجاه غيرهم، أليس هذا دافعًا لمحاكمة الناس، ومضايقتهم، والتدخل في إيمانهم الشخصي؟

علاقة الإسلام بالآخر في فهمي تسكن في قول ربنا سبحانه وتعالى: «لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ».

وسواء كانت هذه الآية موجَّهةً إلى أهل قريش أم يخاطَب بها أهل هذا الزمان، فإن القاعدة واحدة، والأصل ثابت: كلنا في اختبار، وأنا لا أستطيع التجرؤ

والادعاء بصلاحي، أو ضمان صوابي وإخلاص نيتي حتى آخر المشوار، فكيف يمكنني إصدار أحكام تجاه الآخرين؟!

من حقي، بل واجب عليَّ أن أعتقد الصواب التام في عقيدتي ومنهجي، ثم أتوجه بكلِّيتي إلى إثبات عظمة وقيمة ما آمنت وسلمت به.

نعم، من حق العقائد على أصحابها أن ينصروها ويدعوا الناس للإيمان بها، بشرط الحُسنى، بالقول اللَّين الجميل، بالحكمة وما تستدعيها من هدوء نفس ورجاحة عقل، بأن أحاول علاج رغبة البعض في النقاش وتفهم انزعاجهم منه، لن يكون لي رصيد من الخير يعزز موقفي، لأنني لا أريد سرقة يقين مَن يخالفني والانتصار على أفكاره القديمة، أنا أريد هدايته، ونيتي في هذا صافية. ما الذي يمكن أن يدعو إلى التوتر في هذه الحالة؟ لا شيء [illegible]

التوتر كله يأتي حين أستغل فكرة الآخر، وأتهمه في رجاحة عقله وبالخبث نيته وبحبه للفاحشة وللانحلال والباطل، أن أكون متسمجًا سخيفًا، متكبرًا مغرورًا بالحق الذي أدَّعيه. [illegible]

أنظر إلى الحزن النبيل الذي اعترى النبي محمد ﷺ إذ رأى جنازة رجل يهودي وزَجْره لأصحابه عندما حاولوا التنويه بأن الجنازة لرجل على غير عقيدته منبهًا أن النفس الإنسانية واحدة في احترامها وتقديسها، وأن للموت مهابة

أكبر من الاختلاف العَقَدي، إذ عودة الروح لخالقها أمرٌ فيه من التأمل أكبر مما فيه من المحاكمة والإدانة.

النبي محمد ﷺ يخبرنا بوضوح أن للحق موقفًا، وأن للموت موقفًا.

ولا أعجب في هذا الشأن من موافقة النبي ﷺ على طلب أحد أصحابه الصلاة على أبيه الذي عُرف عنه نفاقه وعداؤه للنبي والمسلمين.

عبد الله بن أُبيّ بن سلول الذي كره النبي وعاداه، وخذله في مواقف كثيرة، وخاض في شرف زوجته، قد مات، وكان النبي يعلم أن صلاته واستغفاره للرجل لن يفيده شيئًا، لكنه صلَّى عليه، وكفَّنه في ثوبه، وواسى ولده، لدرجة أن القرآن نفسه استدرك عليه هذا التصرف شديد النُّبل تجاه رجل منافق حارب الفكرة حتى النَّفَس الأخير.

هذا السلوك النبوي هو مدخلي لفهم مسؤولية المسلم الأخلاقية، وهي أن أحب الخير للناس، وأتفهم ضعفهم الإنساني، وأرى نفسي وهم طوال الوقت شركاء اختبار، والصلاح والهداية من الله.

الشماتة في الموت ليست من شيم هذا المنهج، ومَن مات على باطل ـ كما أعتقد ـ فقد مات مسكينًا، وذهب لدار الحق، ولا يجوز لي إصدار الأحكام والتدخل في شؤون الخالق سبحانه، كأنني أستدرك عليه رحمته!

لينشغل كلٌّ منَّا بعمله، والحد الأدنى الذي يجب أن نحافظ عليه ابتداءً هو ألا نكون فتنة للناس تشكِّكهم في القيم النبيلة العظيمة... تشكِّكهم في الله الذي نحدِّثهم عنه، وهذا لو تدري ذروة البلاء.

السؤال السابع: هل الدين فعلًا طمأنينة؟ ولماذا هذا الشعور بالذنب الذي دائمًا ما أشعر به؟ ثمة صورة مثالية أنا دائمًا مُقصِّر في الوصول إليها، مما ينعكس على نفسيتي، وشخصيًّا عرفت كُثرًا قطعوا علاقتهم بالدين لأن الدين طوال الوقت غير راضٍ عنهم!

من البدهيات الاعتراف بأن القواعد تضيِّق حركة الناس، وفي البشر التفافٌ على القوانين مشهود، بدءًا من لاعب الكرة الذي يتحايل على لعب الكرة بيده لدرجة قوله أن يد الله هي مَن تدخلت لتضع الكرة في المرمى - راجع تصريح مارادونا الشهير - وانتهاءً بتحايلك على إشارة المرور الحمراء إذا ما حدَّثتك نفسك أن الوقت ليل ولا ضابط هنا، وطبيعي ومنطقي أن يضيق المرء بالقاعدة إذ تسري عليه، ويحتاج إلى الإيمان بأنَّ مَن وضع القواعد وضعها من أجل مصلحة عليا، تسهِّل حركة الجميع بمن فيهم هو شخصيًّا.

من هنا يمكننا إمساك أول خيوط هذا السؤال، فهل القواعد الكثيرة التي وضعها الدين تدفع من أجل مصلحة أكبر؟ وهل كل ما يقال لنا من قواعد

وأحكام هي حقًا من الدين؟ وفوق هذا يأتي السؤال الأهم وهو: هل في هذه القواعد ما يصطدم بطبيعتي البشرية، وأنها فوق طاقة الإنسان؟

لو لاحظت يا صديقي ستجد أن كل سؤال كبير قد طرح أسئلة أخرى فرعية، وفي وسط هذه الغابة من الأسئلة ينمو الإيمان الواضح المطمئن، الخوف فقط هو الذي يمنعنا من فعل كل هذا، بدءًا من الخوف على إيماننا من أن يطاله شيء فلا نعود راضين به على ما فيه من غموض، أو الخوف من بذل الجهد والذي نظن أنه أكبر من قدرتنا وأفهام عقولنا.

وصدِّقني، الأمر في حقيقته غير ذلك، النبي محمد ﷺ كان يعلم أنْ لا أحد مثاليًا، فكان يَقبل الناس على حالهم، ثم يعمد إلى تهذيب سلوكهم وأفكارهم؛ كان ﷺ يسمح للوقت بأن يكون عاملًا حاسمًا في علاجه لِعِوَج السلوك في أصحابه، كان يخفف عنهم وطأة الذنب مؤكدًا أن الله لن يرضى عنهم لو كانوا مثاليين دائمًا «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، وجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون، فيغفر لهم»، كان ﷺ يتفهم قدرات الناس العقلية والنفسية؛ حرّم الزنى من اليوم الأول لأن طبيعة الشريف تأنفه، وتدرَّج في تحريم الخمر لأن نفوس الناس متعلقة به، وترك لتطورهم في فهم أحكامه مهمة إلغاء العبودية والرِّق لأنها جزء من الاقتصاد القائم.

تأتيه امرأة زانية ليعاقبها فيفتح لها ألف طريق للتوبة ويمهلها المدة بعد أختها كي تذهب وترمِّم علاقتها مع نفسها وخالقها، ويرفض أن ينهر أحدُهم رجلًا سِكِّيرًا، مؤكدًا أن خطأ سُكْره لا ينفي عنه حب الله ورسوله.

يتسامح مع صاحبه الذي أتى سلوكًا يمكن وصفه بالخيانة العظمى؛ إذ أبلغ أسرار تحركاته لقريش، بعدما سمع دوافعه وتقبل خوفه، ورفض ﷺ أن يذكر أحدٌ عدوه الأول أبا جهل بسوء لأن ابنه «عكرمة» الذي أسلم لتوِّه يمكن أن يتأذى بمثل هذا الكلام...

طمأننا النبي ﷺ أن الله يعطينا على قدر تحمُّلنا «لا يكلِّف الله نفسًا إلا وُسعها»، وأنه يقبلك دائمًا «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» وأنه ـ جلَّ اسمه ـ عارف بما فيك وأنه خلقك (ضعيفًا، عجولًا، ظلومًا، جهولًا) هذه نقاط ضعفك التي تجاهدها، والأخطاء التي ستقع فيها شيء خاص بينك وبين خالقك، وهو عند ظنك دائمًا.

والسؤال: من أين يمكن أن يأتيني القلق إذن؟!

علاجُ الخطأ الاعتذارُ، ومخالفة الأوامر والندم على ذلك يستدعي التزامًا

أكبر بها، والفشل في هذا الالتزام يستوجب اعتذارًا جديدًا والتزامًا جديدًا، وهكذا تمضي الحياة، لن تصبح مَلاكًا قط.

رَفْضُ كل القواعد ليس مريحًا كما يظن البعض، شيء ما بداخلنا سيصرخ أن الحياة ليست بهذا العبث، كما أن التعامل بنفسية أن الله غير راضٍ طوال الوقت مرهقٌ ومؤلمٌ كذلك، ثمة حل وحيد لهذا الأمر: أن تعرف الله جيدًا وتفهمه، وتؤمن بحبه لك ودعمه لخطواتك حتى مع كل تقصيرك وعجزك السابقَين، بل وضعفك وزلّتك المقبلَين!

وخلاصة قولي يا صاحبي أن نصرك لمعتقداتك واجبٌ عليك، ومهمتك في الدفاع عن فلسفتك الروحية والاجتماعية شيءٌ ضروريٌّ، غير أنك لن تستطيع فعل هذا مالم تؤمن أنت ابتداءً بأن هذا المعتقد كبير وعظيم، أكبر من تعصبك الأعمى وانفعالاتك الوقتية، سيخبرونك بأن عليك دائمًا نصر الإسلام دون أن يهتموا كثيرًا بإخبارك أن تنتصر أنت بالإسلام.

تنتصر، وتنجح، وترتقي مستخدمًا الدين الذي تعتز وتؤمن حقًّا به...

الدين الكبير في عقلك وقلبك، الخالي من العيوب والثغرات... المبرَّأ من كل ثلمة وخدش...وبطحة!

حكايتي مع نجيب محفوظ

عرفتُ نجيب محفوظ في بداية تسعينات القرن الماضي عندما اصطدمتْ أناملي برواية له بعنوان «حب تحت المطر»، قرأتها سريعًا دون أن تثير كثير شغف في ابن الثالثة عشرة وقتذاك، غير أن محاولة اغتياله بسبب تهجمه على الله أعاد الاسم إلى المشهد، وحينها قررت جريدة «الأهرام» أن تنشر فصول رواية «أولاد حارتنا» ـ سبب الحادث ـ كفصول أسبوعية، فقررت حينها متابعة الرواية الممنوعة من النشر.

أذكر أني لم أستمتع كثيرًا بالرواية نظرًا لرمزيتها المباشرة، غير أني أحببتها كعمل أدبي مهم، ولم أرَ فيه أي تهجم على الله، غير أن سنِّي الصغيرة رفضت فكرة أن يُوضع الله وأنبياؤه في رواية حتى وإن كان بشكل رمزي، هو للمباشرة ـ كما رأيت حينها ـ أقرب.

لسبب أجهله أحببتُ ملامح نجيب محفوظ، شعرتُ فيه بالطيبة، أحسستُ في وجهه بهدوء وسكينة مدهشة لا تليق بحائز على جائزة نوبل.

كنت أتوقع أن يظهر عليه شيء من جنون العبقرية وأَنَفَة الكبار.

على العكس، كانت اللقاءات التي يأتي فيها ضيفًا على التلفاز تُشعرني بأني أشاهد واحدًا من العائلة؛ رجل محافظ، منضبط لفظًا ولباسًا، ويتحدث ببساطة تجعلك تتشكك في أنه فعلًا نجيب محفوظ الذي يتحدثون عن عبقريته، فضلًا عن شخص بينه وبين الله ثمة مشكلة أو معركة.

ثم كبرتُ قليلًا، وألقيتُ بنفسي في مد التدين الذي كان عاليًا في مصر وقتها، فطلَّقتُ كتب الأدب والروايات طلاقًا ظننت أنه لا رَجْعةَ فيه، وصرتُ متحمسًا في إظهار مكائد أهل الفن والأدب ممن يحاربون الله، هؤلاء الذين لا يعرفون ضوابط شرعية، ولا يحترمون قدسية الله، وأنبيائه، وصحابة نبيه.

كنتُ مشاركًا وجدانيًا في معركة الشفاعة التي بدأها الدكتور مصطفى محمود بكتابه «الشفاعة»، وناظرتُ وقاتلتُ من أجل إثبات خطأ الرجل، ثم معركة حيدر حيدر «وليمة لأعشاب البحر»، ورغم أني وقتها كنت خارج مصر، ولم أقرأ الرواية، اللهمَّ إلا ما يذكره الشيوخ على لسانهم متبوعًا باستغفار، فإنني

تابعت مظاهرات طلبة الأزهر ومنع الرواية ممتنًا أن في بلدي شرفاء يدافعون عن الله ورسوله.

ولأن «الزَّمَّار يموت وأصابعه تلعب» كما يقول المثل الشعبي، فقد بحثت عمّا يثير نهمي الأدبي، فمررتُ سريعًا على ما يسمى «الأدب الإسلامي»، ولأنني قارئ قديم للأدب، فلم يملأ عيني وقتها إلا أديب واحد، هو الدكتور نجيب الكيلاني ـ رحمه الله.

طبيب جميل، وأديب عظيم، انضمَّ إلى جماعة الإخوان، وسُجن في عهد عبد الناصر، وحصل على جوائز من الدولة وقُررت قصصه في مناهج التعليم وهو في السجن، وأثنى عليه عدد كبير من كبار أدباء مصر وقتها، غير أن الرجل جعل جُلَّ أعماله تتحدث عن قضايا إسلامية، واجتماعية، وطبعًا هذه الروايات لم تجد لها محضنًا كبيرًا حتى في أوساط الإسلاميين أنفسهم؛ فكرة الأدب ذاتها قضية هامشية لتيار لا يملك رفاهية الاشتباك مع الفن والأدب، ومشغول طوال الوقت بقضاياه المصيرية!

بيد أن الكيلاني كان أديبًا بحق، وإحدى رواياته «ليل وقضبان» تحولت إلى فيلم بنفس الاسم، وتم تصنيفه واحدًا من أهم الأفلام في تاريخ السينما المصرية، ونال جوائز عدة في مهرجانات دولية.

الشاهد أني فُتنت بالكيلاني وقتها، إلى أن وقعتُ على مذكراته الملهِمة، والتي بلغت أجزاء أظنها سبعة أو أكثر، فاصطدمت بعلاقة الرجل مع نجيب محفوظ!

أثنى الكيلاني على نجيب محفوظ ثناءً عظيمًا، وذكر من صفاته الإنسانية ما أيقظ صورة الرجل في ذاكرتي، وأفرد لها فصولًا، فكانت هي الأحبَّ إليَّ في المذكرات على ما فيها من أحداث مهمة، وأرشفة لمحطات من تاريخ مصر والحركة الإسلامية.

غير أن المدهش هو أنني عكس ما هو متوقع، لم أذهب لشراء روايات نجيب محفوظ، ولم أنفِ الرجل من ذاكرتي وتفكيري أيضًا.

لقد فعلت شيئًا عجيبًا؛ صرتُ أشتري كل ما أجده من كتب تتحدث عن نجيب محفوظ، حتى إنني ذات ليلة حسبت ما قرأته عن الرجل من كتب فوجدتها أحد عشر، في الوقت الذي لم أقرأ له إلا خمس روايات!

ومع الوقت، والسن، والتجربة، لملمت كل لقاءات محفوظ المسموعة والمرئية والمقروءة، واشتريت كل رواياته، وقرأته وقرأت عنه، وسمعته وسمعت عنه، حتى صار بالنسبة إليَّ رمزًا لشيء ما...

أحببتُ فيه تمكنه، وصبره، ودأبه، وعدم تعجله، وعكوفه على مشروعه،

ورفضه للصخب، وعزوفه عن مجالس النفاق، وقدرته على تحمل سماجة الناس...

أحببتُ فيه بحثه الدؤوب عن الله، صوفيته التي تغشاه، تفاصيله التي تزيد المشهد جمالًا...

رأيته يقينًا وهو يبحث مع «سيد الرحيمي» عن أبيه في رواية «الطريق».

رأيت محفوظ يصرخ عاليًا كي يرد الله عليه ويُلهمه أي إشارة أنه يسمعه... هذا رجل يشبه دراويش رواياته.

قدَّرتُ ذكاءه؛ شخصيته غير التصادمية في الحياة كان يخفي وراءها أفكارًا وثيقة الصلة بقضايا مجتمعه وأمته، أجرى على لسان أبطاله مالم يقله يومًا، واصطدم بما هو أشد صلابة من الأفكار، لقد أضاف للذاكرة شخصيات ذات دلالة مثل: ثنائية «سي السيد والست أمينة»، و«عاشور الناجي»، و«محجوب عبدالدايم»... شخصيات لم تَعْلَق في الذاكرة فحسب بل شكَّلت موقفًا تجاه قضايا تحررية، وسياسية، وأخلاقية.

قرأتُ خطبته التي كتبها وألقاها مبعوث منه في أثناء تسلمه جائزة نوبل نيابةً عنه، فوجدتُه يعترف بأنه ابن حضارة الإسلام كما أنه ابن حضارة الفراعنة،

ودفاعه الشجاع عن منبته وعقيدته، في الوقت الذي يدَّعون فيه أنه ما فاز بها إلا لأنه يحارب الإسلام.

عرَّفني نجيب محفوظ أن المفكر لا يكون مفكرًا إلا إذا تمرد على كل قالب، وأن هناك فارقًا كبيرًا بين التمرد على القوالب ومهاجمتها، وإلا فأين التفكر في الأمر؟!

علَّمني أن الإبداع لا يكون إبداعًا إلا إذا أتى بجديد، ولا جديد سيأتي ما دُمنا نسير في نفس الشوارع الفكرية، والأزقَّة النفسية الضيقة، يجب أن يتحرر المرء كي يقدر على رؤية الصورة بشكل أوضح.

ذلك أن التصاق المرء بالمرآة لا يضمن له أبدًا رؤية جيدة، بل قد تكون خاطئة ومُضللة، وعليه فالمبدع يحتاج إلى أن يبتعد قليلًا أو كثيرًا كي تتسنى له رؤية أكبر للتجربة، ومعايشة أعمق للأمر، هذا الابتعاد الذي لا نطالب به كل أحد، غير أنه هو وحده القادر على تقديم أعظم الهدايا إلى الإنسانية والإنسان.

تجربتي مع محفوظ ذهابًا وإيابًا علَّمتني قيمة الوعي، وأن الوعي لا قيمة له دون النقد، وأن العقل الجمعي عقل تقليدي جامد، يسهل على الجامدين من البشر استغلاله واستثماره ودفعه إلى التطرف، وكما يقول ماكس هوركهايمر

في كتابة «كسوف العقل»: «كل عقل مؤدلج اغتاله وحش الأيديولوجيا يفقد استقلاله ويفقد قدرته على التفكير ولا يبقى منه إلا الوظائف الإجرائية التي تسمح بالسيطرة على الطبيعة وعلى المجتمع فيبقى منه محض عقل إجرائي يسمح له بعملية استمرار التحكم في الشعب وهو ليس عقلًا إنسانيًا».

نجيب محفوظ إنسان أكثر من كثير ممن كفَّروه، لا أقول إيمانه أكبر، فتلك قضية على عِظمها إلا أن مناقشتها ليست من صميم وظائفنا، تلك أمور تُحسم في الأعلى، لكنه إنسان كبير، لا يؤذي أحدًا، ولا يشجِّع على إيذاء أحد.

ففي يقيني أن الفارق المهم بين الإنسان واللاإنسان، هو أن الإنسان الحقيقي شخص يكترث للآخرين، لآلامهم، وأوجاعهم، وأحلامهم.

ومحفوظ قد اكترث لنا عندما قدَّم أدبًا مهمًّا وعظيمًا، قبل أن يفاجئنا بعد وفاته بخبر تبرعه بربع ثروته لعلاج الحالات الحرجة التي كانت تُرسل بآلامها إلى الأستاذ عبدالوهاب مطاوع في «بريد الجمعة»، كما كُشف أيضًا عن دعمه المادي للقضية الفلسطينية.

فشكرًا له على ما قدم... وظنِّي أن باطنه أنقى مما أظن، وأنه سعيد إلى جوار من ظل حياته بأكملها يبحث عنه.

السرايا الصفراء

قرأتُ يومًا مقالًا للدكتور محمد المخزنجي أنه خلال عمله بمستشفى الأمراض النفسية شاهد موقفًا غريبًا، وذلك أن المرضى قاموا بعمل جنازة مهيبة لأوراق الشجر المتساقطة، ومضوا في خشوع رهيب إلى مقبرة تم حفرها بكل جلال، ووضعوا الأوراق، وأهالوا عليها التراب، ثم وقفوا في حزن حقيقي يتلقون العزاء، ويشدُّ بعضهم على أيادي بعض في حرارة ومواساة!

لا أدري لماذا أتذكر هذه القصة عندما أطالع مسرح الأحداث في بلادي، وأرى الممثلين وهم يرتدون ثياب المثقفين والنخبة، ويزعجوننا بتمثيل سمج لا يخلو من انفعال لكنه خالي الدسم، لا يُسمن ولا يُغني من جوع.

تخيَّلْ يا صاحبي أنك تشاهد عملًا مسرحيًّا يُراد من أحدهم أن يمثل فيه

دور فلاح فيرتدي رابطة عنق، أو يحاول أحدهم إتقان دوره كإمام مسجد، فيأتيك بلباس البحر، هذا هو ما يحدث بالضبط...

كلام في وادٍ، وأفعال في وادٍ آخر...

وأنا رجل أربعيني، لستُ من السذاجة كي أفرد كلامي وأضيع وقتي وأوقاتكم كي أتكلم عن هنات بشرية، ولا كبوات شخصية، ولست مريضًا بالنقد كي أتتبع حالات الضعف البشري لأثبت أن الجميع نصابون، كما أنني لست معنيًا بالحديث عن نيَّاتهم، ولا إثبات خبثهم، قد يكونون طيبين، لكنَّ أمور القلب لا تهمني ما دمت غير مطَّلع عليها... ما أقف عنده هي الشواهد والأحداث... والنتائج.

إنني أتحدث عن انفصام تام بين معتقدات هؤلاء القوم وسلوكهم الجماعي، عن الفارق بين حماستهم الغاضبة وخطواتهم المرتعشة، عن القيم التي يحاربون من أجلها بإصرار وكيف يضعونها تحت أقدامهم حينما تتعارض مع مصالحهم الشخصية.

ولو كان الأمر فرديًا لما تحدثنا عنه ولَعددناه من جُملة الخَبث الذي يطال أي فكرة، غير أنه حال الأمة برمَّتها، اللهمّ إلا قلة ممن رحمهم الله، وحفظ لنا طيب معدنهم، وحافظ لهم على ماء وجوههم.

في بلادي ليبراليون، وصكُّ الليبرالية أن تؤمن بحق الناس في العيش، وتحارب كي لا تُصادَر حريتهم، وتختلف مع الأيديولوجيات التي تحاول فرض سيطرتها، غير أنك يجب ألا تقبل لها أذى غير مبرَّر، أو عقابًا دمويًا.

والليبراليون في بلادي قوم يحبون الشماتة، يحاربون من أجل حرية مَن يشبههم، يسبُّون شعبًا بأكمله لأنه جاهل، أُميٌّ، يمكن خداعه باسم الدين، لا يعمدون إلى تعليمه لأن التعليم يريد إخلاصًا ووقتًا، وهم يريدون نصرًا سريعًا، وعليه يجلسون في مقاهي وبارات العاصمة ليفرغوا حنقهم، ويتشاركوا يأسهم، وينتفخوا بما لديهم.

يحكون في سخرية مريرة كيف أن أستاذهم الأول أحمد لطفي السيد عندما دخل الانتخابات في عصر الملكية قام منافسه باستغلال جهل الناس وخوفهم من أن الرجل لو نجح سيطبِّق «الديمقراطية» والتي تعني الكفر بالله، فذهب الناس إلى رائد التنوير لسؤاله عن حقيقة هذا الأمر، وهل سيطبق الديمقراطية فعلًا، فأجاب الرجل ببساطة أنْ نعم، فانفضَّ القوم عنه وهم يستغفرون الله، ونجح منافسه!

هذه القصة جرت منذ مائة عام، يحكونها من يومها حتى اليوم للتدليل على جهل الشعب وعدم أهليّته لفهم أفكارهم العظيمة، ولا يحكون عما فعله

رائدهم وهل بذل جهده في تعليم الناس معنى الديمقراطية أم اكتفى بتسجيل نقمته وإحباطه فقط.

«العلمانيون ـ الليبراليون ـ التنويريون» اختر من القائمة ما شئت، ثم أكمل...

هؤلاء القوم يحتفلون كل عام بذكرى الرائدة هدى شعراوي، هذه المرأة التي وقفت أمام الجهل وطالبت بحرية المرأة، غير أن ابنها حينما خدع «امرأة» وأنجب منها طفلًا وتنكَّر لها، ذهبت هذه «المرأة» إلى نصيرة المرأة لتحكي لها، فطردتها، وأوصت وزير العدل بألا يقبل قضيتها، حتى وصل الأمر إلى رئيس الوزراء وقتذاك سعد زغلول، فقرر التدخل ولملمة فضيحة سيدة التنوير قبل أن تطالها الصحافة، غير أن مصطفى أمين سجَّلها في كتابة «مسائل شخصية»، وذكر أن المحكمة قضت ببنوَّة الولد، وكيف أن هدى شعراوي قررت معاقبة «الأم» بأخذ الطفل ومنعها من رؤيته، وألهمته هذه المأساة قصة فيلم «فاطمة» التي أدت دور البطولة فيه المطربة أم كلثوم.

عن أي امرأة كانت تدافع هدى شعراوي؟ عن امرأة تشبهها

وعن أي قيم كانت تحارب؟ قيم تحميها، وماذا لو كانت هذه القيم ستضرها؟ لا مانع إذن من وضعها تحت الحذاء!

اقرأ لنبي الليبرالية جان جاك روسو اعترافاته التي دوَّنها، والتي أُجبر عليها بعدما فضحته عشيقاته، لترى كيف أن الرجل كان ديكتاتوريًا، وكيف أهان كل امرأة ألقاها حظها العاثر في طريقه.

هذا عن الليبرالية، وماذا عن غيرها...؟

الإسلاميون، أهل الله وخاصَّته، الذين يتخذون محمدًا ﷺ قدوة، ويتعاملون مع القرآن على أنه دستور...سترى ما يُحزنك ويؤلمك، سترى قومًا أدمنوا المظلومية حتى صارت جزءًا من عقيدتهم، يتباهون بسنوات السجن، ولحظات التعذيب، ويوهمونك بأنها اقتداء بسنوات النبي في مكة.

يكذبون على النبي الذي لم يكن أبدًا قليل الحيلة، ولم يكرر الأخطاء، وكان واعيًا طوال الوقت...

انظر إليهم بعدما انتصروا ذات يوم، طالعْ غرورهم المشوب بالخوف، وانغلاقهم على أنفسهم الباعث على الرِّيبة، وخطاباتهم التي من سذاجتها لم تَحتجْ لأكثر من «مذيع تافه» كي يثير بها ذعر الناس.

هم تفوَّقوا على غيرهم بالنزول إلى الشارع ومخاطبة الناس، غير أن هؤلاء الناس تنكّروا لهم في أول ساعة من النهار، والغريب أنهم لم يسألوا أنفسهم حتى الآن: لماذا حدث هذا؟!

والإجابة لمن يريدها: لأنك كنت دائمًا تَمُنُّ عليهم، لم تحاول أبدًا إشعارهم بأنهم منك، كنت تجتهد في كسب تعاطفهم تجاه مظلوميتك، تلك المظلومية التي حينما سقطت ووجدتَ نفسك في صدارة المشهد لم تعرف كيف تتعامل من دونها، فَبَدَتْ حركاتك متخبطة، واللعب بك سهلًا، وتوريطك لا يحتاج إلى مجهود.

فهل كان النبي محمد ﷺ بهذه السذاجة؟ حاشاه.

لقد فرض الرجل كلمته منذ اليوم الأول، وحينما وجد نفسه في مكان يتيح له درجة من الحرية أثبتَ للجميع أنه لم يخدعهم حينما أخبرهم بأن معه «الحل»، ولم يورِّط الفئة التي تركت كل شيء في مكة وذهبت معه واثقةً به إلى بلد آخر.

كان الرجل يعرف جيدًا أن القبيلة، والعشيرة، هي الشجرة التي ينبت تحتها العربي، وثمن تضحياتهم حينما قطعوا هذه الشجرة وتخلوا عنها وعن أنسابهم، وأثبت لهم أنه لم يلعب بهم ولا بأحلامهم يومًا.

هذا المسرح العبثي القائم في بلادي قادر على أن يثير ريبة الناس في قيم العدل والحرية والمساواة، قادرٌ على أن يخوِّفهم من أي شخص يحدِّثهم عن الله، قادرٌ على أن يُسْلِمهم إلى الضياع.

وأتمنى ألا يخبرني أحدكم بأني وقعتُ في خطيئة التعميم، ولا مغالطة العباءة الواسعة، لأنني ـ كما أسلفت ـ أتحدث عن عموم الحركة، ولم أحاسب النيَّات وإنما حلَّلتُ السلوك، ووقفت أمام الحوادث، ونظرتُ في الأثر، فوجدتُ كل هذا...

وجدتُ أننا نعيش في مشفى مجاذيب، وأننا ندور في دائرة مفرغة، ونقدم العزاء في مأتم مصطنَع!

أبناء الله وأحباؤه

يُحكى أن رجلًا كان يملك خاتم الحكمة، فعاش بين الناس ببصيرة وفهم ووعي، ولغايةٍ ما صنع الرجل خاتمًا يشبه خاتمه الفريد في كل شيء، علَّه خاف أن يُسرق منه فكان يحتاط بارتداء الخاتم الآخر في أثناء نومه وبعض سفره.

وذات ليلة مات الرجل، وسارع ولداه إلى خاتم الحكمة يُمنِّي كل منهما نفسه أنه سيكون الحكيم النابهة، وكان أنْ وجد كل واحد منهما خاتمًا فأنِسَ به واستقر يقينه أنه الخاتم المنشود.

وعندما علم كل أخٍ أن أخاه يدَّعي امتلاك الخاتم الأصلي ذهبا إلى القاضي ليحكم بينهما، وكلاهما يود أن يخرج من دار القضاء بحكم نهائي أنه الحكيم الذي يرتدي خاتم الحكمة المُلهم بالبصيرة، المحفوظ من الزلل.

فما كان من القاضي إلا أن قال لهما: امضيا في شؤونكما، واضربا في الأرض لمدة عام، ثم سنسأل الناس عن أحوالكما وتصرفاتكما فمَن شهد له الخلق بالحكمة ففي إصبعه يسكن الخاتم المنشود!

هذا هو مربط الفرس، إذا أردت أن تختبر القيم فطالعْ السلوك، وما دام ادَّعى منهجٌ صلاحيته فعليه أن يثبت لنا ذلك على أرض الواقع.

وكما فعل القاضي عليك أن تفعل، لا تسمح لأحد أن يطيل الكلام في صحة دعواه، انظر إلى أثر القافلة تعرف ثِقل ما تحمله، ولسان الحال أشد حسمًا من لسان المقال... وأكثر صدقًا.

في كتاب ربنا يروي سبحانه قصصًا لأقوام سابقين، في يقيني أن هذه القصص ليست من باب التسلية، ولا ذكرها ربنا لنمصمص الشفاه، وإنما لنرى جليًّا مواضع الخلل في الناس والمجتمعات ونتجنب تكرارها، ومما ذكره ربنا من قصص أبناء الرسالات السابقة أنهم أقوام عريضو الادِّعاء، يرون أنفسهم في مرتبة أسمى لا لسبب إلا لأنهم هم! مجرد كونك مؤمنًا بالله يعني أنك مميَّز دون جُهد يُذكر. ببساطة إنهم يرون أن «خانة الديانة» لها قيمتها في ميزان الحساب يوم القيامة!

يقول ربنا واصفًا دعواهم: «وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله

وأحباؤه»، وهذا ادِّعاء بالامتياز لمجرد كونك على دين تؤمن بصحته، فيردُّ ربُّ العزة رافضًا هذا الادعاء بقوله ـ جلَّ اسمه: «قُلْ فَلِمَ يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء».

ويضع سبحانه الخطوط العريضة لهذا الأمر بقوله: «ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب، مَن يعمل سوءًا يُجزَ به ولا يجد له من دون الله وليًّا ولا نصيرًا».

ليس على أحد أن يدَّعي الوصل بالسماء، على الجميع أن يثبت هذا الوصل بعمله، ومن يعمل سوءًا مهما كانت قِبلته سوف يُجزى به، ويحاسَب عليه.

ارفع السماء من العبارة السابقة وضع كل قيم الدنيا؛ فليس لأحد أن يدّعي وصله بالعدالة وهو ظالم، ولا بالوطنية وهو خائن، ولا بقبول الآخر وهو متصادم مع أي بوادر للاختلاف معه...

أنت لست مميزًا لأنك وُلدت بيدين وعينين وأقدام تحملك إلى غايتك، أنت مُطالب بأن تُري مَن رزقك بما تراه، شرفًا أو نعمةً أو تميزًا، أثر هذا الأمر عليك، وأن تبرهن للناس صدق التميز الذي تدعيه.

كما أنك لست استثنائيًّا لكونك مسلمًا، أنت مُطالب طوال الوقت بتحمل ثِقل هذه الرسالة عليك، ودفع ضرائب إيمانك بها سلوكًا طيبًا صالحًا في دنيا الناس.

وامْدُد الخط على استقامته، وأقم ميزان عقلك واضبط رمانته على المنتصف، حيث لا امتيازات تُعطى للمدّعين، ولن تخال على أذهاننا حيل أهل التنظير، ومَن أثبتتْ المواقفُ والأحداثُ واختباراتُ الحياة قدرتَه على فرض أفكاره في دنيا الناس فسهَّلت عليهم حياتهم ودفعتهم إلى النُّبل والشجاعة والرحمة وغيرها من مكارم الأخلاق، سلَّمنا بصحة موقفه ورفعنا قدره فينا...

ومَن أبصر فلنفسه، ومن عَمي فعليها...

مكتبة
t.me/t_pdf

أمور تحدث

أوروبا في القرن الخامس عشر تواجه مأزقًا؛ الكنيسة تتحكم في كل شيء منذ أربعة قرون والبطش باسم الرب يحكم القارة العجوز، وتحديدًا عندما صرح البابا غريغوري بأن الكمال متجسّد في الكنيسة الكاثوليكية لكونها معصومةً من الرب، وأنها لا يمكن أن تكون وقعت في أخطاء ماضية ولا يمكن أن تقع في أخطاء مقبلة...

قرونٌ والكنيسة تنشر الشر في البلاد، كانت قادرة على أن تُسقط الملك بكلمة. لا أحد معصومًا في عقيدتها إلا أبناء الجيش البابوي، والذي يقاتل في الحروب الصليبية ليُعلي كلمة الكنيسة والرب.

كانت الكنيسة تغفر الذنوب بمقابل مادي، تُبارك البشر والشجر والمواشي

بأجور معلومة، تمارس سيطرتها على حياة الناس، وبقدر ما تملك بقدر ما تحصل على تسهيلات.

وخلال أربعة قرون حدثت مناوشات عدة بين الكنيسة ورموز تطالب بالحرية من سيطرة البابا، واحتكار الكلام باسم الرب، وفرض السيطرة المرعبة على الناس والتحكم في حياتهم.

وفي عشرينيات القرن الخامس عشر بدأت الأرض ترتجف تحت أقدام الكنيسة ومنتفعيها، إذ ظهر الرجل الأبرز مارتن لوثر، القسيس والراهب وأستاذ اللاهوت الألماني الذي قلب الطاولة على رأس الكنيسة مؤكدًا أن الإيمان قضية شخصية، وأن بيع «صكوك الغفران» للناس فعلٌ ظالم، والأهم أنْ لا شيء يقف أمام توبة الإنسان ما دام مؤمنًا بالرب، وأنه لا يحتاج بجانب إيمانه إلى أي أعمال أخرى مثل التبرع للكنيسة، أو طلب الغفران من بابا.

وكالعادة، تمت محاربة الرجل ومناظرته والتحفظ عليه وطرده من الكنيسة.

غير أن لوثر أكمل مشواره حتى مات، وعاش مدافعًا عن أفكاره حتى يومه الأخير، وكَثُر أتباعه وتلامذته، لقد حرَّكت دعوته الماء الراكد، وحمل مشعل التمرد بعده مصلحون كُثُرٌ، يهمنا منهم شخصان:

الأول هوجون كالفن، الذي يعد أحد أبرز رموز الجيل الثاني للإصلاح الديني، وُلد في فرنسا عام 1509 ودرس القانون والعلوم الإنسانية حتى حصل على الدكتوراه في القانون.

اصطدم كالفن بسلطة البابا بشكل غير مباشر في أثناء دراسته حين طُرد أبوه من الكنيسة لخلاف حدث بينه وبين سلطانها، ثم تبعه تجريد أخيه القسيس وطرده هو الآخر، ليموتا واحدًا تلو الآخر، فبدأ نفور الرجل من جبروت الكنيسة وطغيانها، حينها كتب كتابه الأول «مبادئ الدين المسيحي»، وهي من التجارب الأولى لتوحيد نظريات البروتستانتية، عبر التشديد على تقديس الكتب السماوية واعتبارها المرجع الأساسي للديانات.

وخوفًا من القمع الذي سيطر على فرنسا سافر الرجل إلى جنيف، وهناك اصطدم مجددًا مع الدولة لمعارضته توزيع السلطات بين الحكومة والكنيسة، وعليه تم طرده من قبل السلطات ليعيش في ألمانيا.

وفي ألمانيا كتب الرجل كتابات مهمة، وذاع صيته، حتى إنه عاد إلى جنيف مرة أخرى، وتم استقباله والاحتفاء به وتقديمه على أنه اللاهوتي البارز وخليفة مارتن لوثر، وتم إعطاؤه كل السلطات لتشكيل حكومة وتشريع القوانين وبداية عصر جديد من الحرية.

لقد انتصرت الرؤية الإصلاحية ـ على غير العادة ـ وأُطلقت يد الرجل من أجل تطبيق مبادئه في دنيا الناس، ونشر المزيد من الحرية، والفكر، والأمان.

أما الرجل الآخر الذي خرج متمردًا على ظلم الكنيسة فهو ميشيل سرفيه.

ولهذا الرجل حكاية أحب أن تسمعها منِّي، وللأسف لن تجد كثير ذكر لهذا الرجل في كتبنا العربية، وربما كان السبب بعضٌ مما سنذكره!

وُلد سرفيه في سبتمبر عام 1511 في إسبانيا، تعلم في سرقسطة وتعرَّف على الأب خوان دي كوينتان، واعظ الإمبراطور، والذي ألحقه بخدمته سكرتيرًا خاصًّا لنباهته وتفتح عقله.

وفي عام 1530 وفي أثناء الجو المشحون الذي أحاط بحركة تقويم العقيدة وإصلاح الكنيسة كان لسرفيه في ذلك كله رأيٌ يخالف آراء معاصريه الذين كان يرى أنهم لم يسيروا في تقويم العقيدة إلى الغاية، فقد كان سرفيه ـ وهو بعدُ في العشرين من عمره ـ مقتنعًا بأن مجمع نيقية الذي أقرّ عقيدة التثليث في القرن الرابع وجعل منها أساس المسيحية، قد أخطأ جانب الصواب، وأن التوحيد هو وحده العقيدة السليمة.

لم يغلق الرجل قلبه على إيمانه، بل عمل على نشره وتعريف الناس به، فاتصل بكبار علماء الإلهيات في غالب بلاد أوروبا، محاولًا إقناعهم بصحة

رأيه، وبضرورة بناء عقيدة جديدة على أساس التوحيد، فما كان منهم - كما هو متوقع - إلا الرفض والتكفير واتهامه بأنه يهودي تارةً، ومسلم تارةً أخرى!

لم يَخف الرجل أو يتراجع، بل نشر في عام 1531 كتابه الأول وعنوانه «غلطة التثليث» وأعقبه برسالة أخرى عنوانها «محاورات في التثليث».

واجتمع البروتستانت والكاثوليك - ونادرًا ما يجتمعون - على تكفير سرفيه، ومعاقبته، والكنيسة لا تعرف إلا عقابًا واحدًا لمن يخالفها وقتذاك وهو «الموت»، فما كان من الرجل إلا أن فرَّ إلى باريس بعدما غيَّر اسمه، ودرس الطب، وأسهم إسهامًا كبيرًا بكتبه التي ألَّفها هناك باسمه المستعار في مجالات غير الإصلاح الديني، مثل كتابه الطبي المهم عن الأشربة والذي هاجم فيه الطب المعاصر، مما سبَّب له عداوات في الأوساط الطبية.

ثم كتاب آخر عن الفلك عام 1538 وتمت مناقشته في برلمان باريس وأُدين وقتها بالزندقة غير أنه ظفر بالبراءة من هذه التهمة.

الشاهد أن الرجل في ما يبدو كان فذًّا، حرَّ العقل، موسوعيَّ المعرفة، مثقفًا، جريئًا، عاش في فرنسا بصفته طبيبًا إسبانيًّا يُدعى «دي فيلنوف» وكان يقدر على إكمال حياته في هدوء نسبي، إلا أن دعوة التوحيد التي آمن بها لم تفارق ذهنه قط، وعندما وصل إليه أن أحد المصلحين الأحرار قد تبوّأ مكانه المستحق

في حكومة جنيف تفاءل خيرًا، أخبره يقينه وقتها أنْ لا أحد سيقدر الفكر غير شخص حرٌّ حارب من أجل فكرته، وقاسى الاضطهاد في سبيل ما يؤمن به.

وهكذا راسل ميشيل سرفيه، جان كالفن، المصلح البارز الذي ذكرنا شيئًا من خبره قبل قليل، وكان من فرط تفاؤله أن أرسل له مسودة كتابه الجديد «المسيحية الجديدة» مستطلعًا رأيه فيه.

لم يدرك سرفيه أن المناداة بالحرية شيء وتطبيقها شيء آخر، مثل كُثُرٍ منَّا ظن المسكين أن المظلوم لن يظلم حين يحكم، والثائر لن يطغى إذا امتلك القرار، ومن ينادون بالحرية سيطبِّقونها حينما يصلون إلى كرسي الحكم.

لم يعلم صاحبنا أن كالفن أنشأ في جنيف حكومة دينية صارمة، وأقام نظام التأديب الكَنَسي الذي يتيح عبر قوانين صارمة جدًّا التدخل في جميع تفاصيل الحياة الخاصة للفرد، وفرض الإعدام على كل مخالف لعقيدتهم.

وفعلًا تم إعدام نحو ستين شخصًا لأسباب دينية، ونفي نحو خمسة وسبعين آخرين، وسجن نساء لارتدائهن قبعات غير لائقة، وحُرِّمت الفنون باستثناء الموسيقى الدينية، والأدهى أن كالفن كان يرسل كل سنة قسيسًا من الكنيسة لزيارة كل بيت وكل أسرة، للتأكد من التزامهم الديني، وكان له الحق في استدعاء أي شخص للمثول أمامه لاختباره، وكان في وسعه زجر الآثمين، أو

حرمانهم من الغفران علنًا، كما اشترط على الجميع حضور العظات في الكنيسة يوم الأحد من كل أسبوع.

للأسف لم يعلم ميشيل سرفيه أيًّا من هذا، أَحْسَنَ الرجل الظن بكالفن، فأرسل إليه مسودة كتابه متشوقًا لمناقشته، فثارت ثائرة المُصلح الطاغية!

لم يناقش الأفكار التي حوتها مخطوطة سرفيه كما ينبغي لعاقل أو حتى مناضل سابق، بل اتهمه مباشرةً بالكفر والزندقة، وهو ما وصل بطبيعة الحال إلى ميشيل سرفيه الذي قرر أن ينشر كتابه - البالغ سبعمئة صفحة - سرًّا، فلم يظهر في طبعته التي نُشرت عام 1553 ما يدل على اسم الناشر ولا مكان الطبع، ووقَّعها بأحرف اسمه الأولى.

وعلم كالفن بالأمر، وشعر بالتهديد على منهجه وأفكاره، فأرسل وشاية - باسم أحدهم - إلى أسقف فيين بفرنسا، حيث يقيم سرفيه، يشي به ويُخبره بحقيقة مؤلف الكتاب الحقيقي.

لقد استعدى المناضل السابق سلطات التفتيش الكاثوليكية التي كان من أوائل الثائرين عليها والهاربين من اضطهادها كي تقوم بتصفية رجل يكتب أفكاره!

وكان أنْ قُبض على سرفيه، غير أنه تمكن من الهرب قبل إعدامه، وظل

مطارَدًا من بلدة إلى أخرى، حتى قرر أن يذهب إلى إيطاليا، وللأسف أخطأ باتخاذه طريقًا يمر عبر جنيف، وأخطأ ثانية عندما حضر ـ ربما بدافع الشغف العلمي ـ الصلاة في كاتدرائية جنيف مع علمه أن كالفن هو من سيلقي الموعظة بها، وكانت الكارثة أنْ تم تمييزه والقبض عليه.

الآن المصلح سرفيه في قبضة المصلح كالفن، قبض عليه لا لجريمة ارتكبها داخل حدود الدولة، ودون جريرة قانونية يؤاخَذ عليها، حتى إن فولتير ـ الكاتب والمفكر ـ كتب بعد ذلك مؤرخًا ما حدث بقوله: «إن القبض على سرفيه في جنيف حيث لم ينشر كتبه، ولم يَدعُ إلى عقيدته، ولم يكن من ثم خاضعًا لقضائها، إنه عابر سبيل والقبض عليه يعد عملًا همجيًّاوخرقًا للشرائع الدولية».

بيد أن كل هذا لم يغيِّر من الأمر شيئًا، تم سجن الرجل وتقييد يديه وقدميه بالسلاسل طوال فترة سجنه، رموه في جب محرومًا من الضرورات الإنسانية، ومع هذا دافع الرجل عن نفسه في المحكمة دفاعًا عظيمًا، ظن الجميع بعده أنه سيخرج منها بريئًا، أو على أقصى تقدير يُنفى من المدينة.

لكنّ كالفن تدخل سريعًا، وقرر أن يذهب بنفسه إلى المحكمة ويمطر سرفيه خلال شهرين وثمانية أيام بتهم استخرجها من كتبه، وطبعًا في ظل قضاة

يؤمنون بقدسية آراء كالفن تم تجريم وزندقة سرفيه، لقد تم قلب الطاولة، وصدر الحكم بإعدام ميشيل سرفيه حرقًا.

وكما تعوَّدنا في مثل هذه الأمور حاول كالفن أن ينال من سرفيه اعترافًا بخطأ منهجه ولعله وعده بتخفيف العقوبة أو إلغائها، غير أن الرجل رفض في إباء.

وفي الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم السابع والعشرين من أكتوبر لعام 1553 خرج ميشيل سرفيه من سجنه مرفوع الرأس، ووقف ليسمع قرار الإدانة ناظرًا إلى الجماهير المحتشدة، قبل أن يُربط في عمود خشبي وسط كومة من الحطب، وفي أثناء إشعال النار فيه لفت نظره أن مسودة كتابه التي أرسلها إلى كالفن قبل سنوات قد وضعت تحت قدميه لتُحرق هي الأخرى.

هل لنا بدرس نتعلمه مما حدث؟!

لا تثق بمن لم تختبره الحوادث وتقلِّبه الأيام، فلا ضمانة على صلاح أحد مالم يوضع في الاختبار، الكلام سهل والادعاء رخيص، ورصيد المظلومية السابق لا يعني نقاء النفس ولا نظافتها.

إيَّاك أن تعطي أحدهم ـ مهما أحببته أو فُتنت به ـ صكًّا بصواب خطواته المقبلة.

قاتِلْ من أجل أن تكون سلطاته مقيَّدَة، لم يعد هناك أنبياء يمكننا إعطاءهم السلطة المطلقة في طمأنينة.

هنا بشر أصحاب اعوجاج وتطرف، وإعطاؤهم سلطة ـ رغم صلاحهم الظاهر ـ هو مفسدة وفتنة لأنفسهم ولأتباعهم.

الانقلاب على المبادئ أمر ملحوظ في التاريخ، وخيانة الرموز للقيم التي ينادون بها يجب ألاتكون جالبة للدهشة والعجب، وعليه تصبح الرِّيبة واجبة، والاحتياط فرضًا، وتنمية ملكة المعارضة والنقد أمرًا لا بديل عنه.

بالمناسبة، التاريخ يحتفي بكالفن أكثر من احتفائه بسرفيه، وهذا درس آخر إضافي، أن التاريخ شيخ كاذب، لأن مداده دائمًا ما يخرج من محبرة المنتصر، وسطوره تمر على ألف رقيب.

فلا تصدقوا كل ما يُحكى لكم!

أنا مثلك خائف

الله لا يخوِّفك، فلماذا إذن تخاف منه؟

الله أعطاك الضمانة حينما تُخطئ مجتهدًا أنه سيعطيك أجرًا... فلماذا ترتبك؟

اعْلَم أن الناس يخوِّفونك، والمجتمع يخوِّفك، ومنظومة القيم التي تحكمنا تخوِّفك.

فهل كل هؤلاء يستحقون الرجفة التي تتملكك وتمنعك من فعل ما تراه مناسبًا، وعن قول ما ترى أن من حقك قوله، ومن التفكير في ما يجب أن تفكر فيه؟!

الأمة التي تنتمي إليها يا صاحبي تختلف في كل شيء، إلا في شيء واحد: عدم رضاها عمّا هي فيه.

سَلْ أي مواطن عربي، أو مسلم، بغضِّ النظر عن لباسه وهويته، ستجده يؤمن بأن بلده ودينه وأمته، تستحق أفضل بكثير مما هو موجود.

ألا يدفعنا هذا إلى أهمية أننا بحاجة إلى تغيير...؟!

تغيير القيم الحاكمة، والأفكار الغالبة، والحديث القائم...

فلماذا إذن نخاف، ما دمنا نؤمن بأن الأمر به خلل...؟

نحن في زمن مليء بالرسائل، ففي الوقت الذي يحثّنا فيه رجال الدين، ومتأنّقي التنمية البشرية، والأهل والأصدقاء على النجاح الشخصي الذي سيُنجيك من عذابات الدنيا والآخرة...سيفاجئك ضميرك بأن هذا ليس صحيحًا، الإنسانية تحتاج إلى إنسان لا يحضر بذاته، يجب أن تُحضر ضميرك معك، وتحمل إنسانيتك في داخلك، وتخلع خوفك على عتبة الدار الدنيا.

لماذا نخاف وحزمة الأفكار التي ورثناها تحتاج إلى تفكيك؟ أقول «تحتاج» لأنها سبب البلاء.

لماذا يُرعبوننا من مواجهة فكرة قديمة فاسدة؟ القرآن منذ أكثر من ألف وأربعمئة عام أعطانا تصريحًا قويًا لفعل هذا...

أخبرنا بأن هناك عقبة شرسة من الجمود ستواجهنا، وستستمد شراستها

من ثالوث «القِدم ـ الأغلبية ـ المكانة» هذا نفسه ما واجه نبيَّه ـ وكل أنبيائه ـ في مبتدأ الأمر.

«بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ـ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ـ أطعنا سادتَنا و كُبراءنا».

هذا الثالوث المرعب الذي سيقف أمامنا، وسيشكِّك في موقفنا، وسيُرهبنا من الصدام والمراجعة وتصحيح المسار، نحن بحاجة إلى مواجهته والتغلب عليه.

قِدم أي فكرة ليس دليلًا على صحتها، واتِّباع أغلب الناس لها ليس برهانًا على صدقها، وخروجها من فم وجيه أو كبير لا يحسم أمرها.

في علم المنطق يسمون هذا الأمر «المغالطات المنطقية»، وهي قدرة الفكرة على مد نفسها بالحياة ليس لأسباب منطقية واضحة، وإنما لأنها قديمة، أو قالها صاحب حصانة، أو يؤمن بها غالب الناس، على الرغم من أن الواقع والتجارب والمآلات، كلها تؤكد عوارها الواضح.

الكارثة أن أتباع النبي محمد ﷺ الذي لم يخشَ يومًا من تمرير أفكاره على محكمة الدليل والبرهان، يرون أن الإيمان الأعمى منجاة، يتعاملون مع دينهم

كأنه ضد التفكير، يُشعرونك بأنه دين ضعيف، مرتبك، غير كفء لطرحه للجدل والنقاش.

وأنا رجل غيور، يؤلمني أن يطال التخبط دين الله، كأننا نخاف على ربنا من الأعداء!

لماذا نخاف من فكرة إعادة تقييم إيماننا، وطرح سؤال حول الدين، وهل يمكن أن يكون خَلاصًا مما نحن فيه، ومحاولة فهم سبب الفجوة بين ما يقولون إن الدين يمتلكه من عظمة، وبين الواقع الداعي للخجل؟

طبعًا هناك قول غبي مكرَّر سخيف بأننا يجب أن نفرِّق بين الإسلام وحال المسلمين.

لماذا هو غبي وسخيف؟!

لأن منهجًا ما إنْ لم يقدِّم لأتباعه الحلول فما فائدته؟

هو إما صحيح وتجب إعادة اكتشافه وإزالة دهون التخلف التي غطَّته منذ زمن، وإما غير صالح ويجب تركه خلف ظهورنا.

هكذا بكل وضوح وصراحة...

العاطفة ـ وتلك مغالطة منطقية أخرى ـ هي آخر ما نحتاج إليه في هذا الحديث.

وأنا هنا أتحدث عن كلتا العاطفتين: عاطفة الحب والكره، والقبول الأعمى والرفض الأعمى.

هي ليست معركة لإثبات صحة شيء أو عواره، هي معركة لاكتشاف هذا الشيء أولًا.

نحن لسنا بحاجة لرجل يسبُّ البخاري، ولا رجل يضع كتابه مع القرآن الكريم في مرتبة واحدة، لسنا بحاجة لمن يعبث في تاريخنا ليُخرج لنا قذارته، ولا آخر يوهمنا بأنه تاريخ ناصع البياض...

نحن بحاجة لعقل يعيد تقييم الأشياء، ومحاكمة الأفكار والأشخاص بإنصاف، ومواجهة فكرته هو ابتداءً دون أن يشغلنا بمعارك لا طائل من ورائها إلا زيادة نسب المشاهدة.

نحن بحاجة لأن يعود كل منَّا إلى نفسه ويتساءل عن كل هذه القيود التي تكبِّل فكره وحركته، من أين أتت، وإلى متى ستظل؟

لماذا نخاف من التمرد والرفض، إنه لَخيرٌ لنا في الجملة أن يكون منّا مجازفون يُخطئون ويربكون الأذهان على أن نعيش جميعًا في خطر الخمول!

نعم... خير لنا أن تتصادم أفكارنا وتوجهاتنا، أن تبرق بين وقت وآخر

ومضة إبداع وتجديد حتى وإن صنعت عشرات المعارك، وخلّفت مئات الجرحى!

فلأن تُجرح أفكارنا وقناعتنا خير لنا من طمأنينة سباتها.

أنا رجل حزين وغاضب، حزين على ما أنا فيه وغاضب منه، مؤمن بأنني جزء من الخلل؛ خوفي جزء من الخلل، تردُّدي في التعبير عن أفكاري وشكوكي جزء من الخلل، موافقتي على المسلَّمات جزء من الخلل، رعبي من التصنيف جزء من الخلل لأنه يمنعني من الثناء أوالنقد.

الناس لا يفهمون فكرة أن تحب فكرة وتختلف معها، أن تعادي منطقًا وتحترم قائله، إنهم سيلقونني إلى يمين أو يسار، والتصنيف خطر، وعليه لا بد من مراجعة نفسي، وطمأنة قلمي المرتعش... بالصمت!

أنا حائر بين إيمان عجائز فاتني تحصيله، وإيمان إنسان صاحب عقل حر يُرهبني الاشتباك معه.

أنا مؤمن بإله يزعجني عدم قدرتي على الاحتفاء بعظمته، وأحب نبيًّا يؤذيني عدم فهم الناس لأبعاد عظمته، وأنتمي لإنسانية تحارب إنسانيتها وتهينها.

أنا مثلك خائف... وأبحث عن خلاص.

ذمم الناس

يُروى أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قابل طليحة الأسدي حينما جاء ليعلن إسلامه، وكان طليحة قد ادَّعى النبوة وحدثت بينه وبين المسلمين حروب قُتل في إحداها الصحابي الجليل الذي بشَّره النبي بالجنة عكاشة بن محصن.

فقال له عمر: «قتلت عكاشة لا يحبك قلبي أبدًا».

فقال له طليحة: «فمعاشرةٌ جميلة يا أمير المؤمنين، فإن الناس يتعاشرون مع البغضاء».

قرأتُ هذه القصة منذ زمن فتعلمت منها أن مشاعر القلب يجب ألا تكون هي المتحكم الأول في علاقتي مع شركاء الحياة، ذلك أنها تُصدر أحكامها بتطرف، وقد تسجن أحدهم في صفة، وتخلع عن آخر خصالًا، ولو تركنا

القلب يصنّف الناس ثم يرفع أحكامه لننفذها لأحبتنا وخاصمنا وأقمنا العداوات لأسباب شعورية نفسية قد تضلّلنا، فضلًا عن المشقة النفسية التي ستواجهنا.

فالبشر - كل البشر - يحملون بداخلهم أرصدة للخير والشر، للقبح والجمال، للحب والكراهية، لا يوجد إنسان نقيًا بشكل كامل، ولا سيئًا في الجملة، بل يمكننا أن نرى في الشخص الواحد صفات متضاربة، فقد يكون لطيف المعشر في تعاملاته الإنسانية غير أن به جبنًا وتخاذلًا في قول الحق، وقد نهرب من شخص ما قد اشتهر بسوء خلقه ونتعجب إذ يصلنا خبر شهامته في موقف مشهود، أو دعمه لأحدهم في شدته.

وغير قليل من هذه الشواهد يؤكد لنا أن طبائع الناس لم تُخلق على خط مستقيم، وأنَّ تعرجات نفوسهم وأرواحهم قد تجلب الدهشة والعجب، وينبغي في التعامل معهم وجود قواعد ما تجعل عيشنا بعضنا مع بعض محتمَلًا.

ولقد اتخذت خطة في حياتي جنَّبتني غير قليل من شظايا الناس، وحَمَتْني من وجع جراحاتهم تقوم على محورين:

الأول، يقيني بأنني واحد من الناس، وأي نقد لهم وتعجب من شخصياتهم

يجب أن يطالني أنا أيضًا، مما يعني تفهمًا مبدئيًا لوجود أي صفة فيهم، وعدم العجب مما قد تفاجئني به طبائعهم.

فلو أني ضبطت نفسي - وأنا عليم بها - قد وقعت في جريمة الحسد أو الكراهية، أو طفَّفتُ ميزان العلاقة مع أحدهم لأثبت صحة موقفي، فمن باب أولى أن أتفهم حدوث هذا الشيء من الآخرين، وفكرة تفهم حدوثه تختلف عن فكرة قبوله، قد أرفض سوء أحدهم غير أني لا أرفضه بالجملة، وإلا لنفيت نفسي ابتداءً جراء ما بي من عِلَّة سابقة.

وعليه وعيتُ جيدًا أثر حرب لقمة العيش على الناس، وحجم الصعوبات التي تواجههم في الحياة فجعلتْهم أكثر نزقًا وتهورًا مما يجب أن يكونوا عليه، وكيف أن التجارب التي يواجهونها قادرة على أن تغيِّر من طبائعهم وخصالهم، وكان لهذا الوعي أثره في معالجة مشكلاتي معهم بهدوء أكبر وروية وصبر، دون إصدار أحكام متسرعة عليهم.

أعانني على هذا تصريح النبي محمد ﷺ الرافض لفكرة إصدار الأحكام في الجملة بقوله: «مَن قال هَلَكَ الناس فهو أهلكهم».

ذلك أن اتهام الناس بالجملة، دليل على شطط في العقل، ولوثة في النفس، وله عند الله سوء الجزاء.

الآخر: أن لله حكمة في طبع خلقه وتصريف شؤونه، ذلك أن أكثر الأسئلة بؤسًا ومشقة سؤالنا حول حكمة الأشياء.

بلا شك كلنا نُصدم من فكرة وجود خونة بيننا، وننزعج بشدة من احتكاكنا بأناس تحرِّكهم نوازع الأنانية وحب النفس، أو لديهم حساسية تجاه نجاح الناس وتوفيقهم، وهذا الانزعاج وما تبعه من رفض وتعجب أمرٌ منطقي لا يمكن إنكاره، لكن التماهي مع حالة الرفض والإنكار المستمر لوجود أنماط لا أحبها من الناس حولي هو ما أعترض عليه!

ذلك أن رفضي لوجود الأشرار والأنانيين وأصحاب المصالح أعده رفضًا لسُنة الله في الكون! ويقينًا هذا لا يعني ترحيبي بهم وإفساح الطريق أمام مخططاتهم.

لقد تعلمتُ أن الراحة تكمن في تفهم حكمة القدر في خلق أنماط مغايرة من البشر عما أحبه وأتمنى مخالطته، وقضيتي في هذه الحالة تكون منصبَّةً على تقوية إيماني بمنهجي، وإزعاج المعسكر الذي أختلف معه بسلوكي وأفكاري مما يجبره على المضيِّ في أضيق الطرق.

بمعنى آخر، أنا غير معنيٍّ بالقضاء على الظلم، قضيتي الشخصية هي أن أكون عادلًا، وألا أسمح للظلم بأن يدخل دائرتي التي أتعامل فيها.

وكما أن سلوك الظلم مزعج لنا، فإن سلوك العدل والإنصاف مزعج للمعسكر الآخر، ولن يمكنني أن أواصل معركتي في الحياة إلا بالاعتراف بوجود معسكرات أخرى تخاصمني وأخاصمها.

وهنا يجب أن نؤكد معلومة بدهية لا يراها المثاليون، وهي أن معارك الحياة ليست صفرية، ولن يستطيع معسكر الخير أن يقضي على الشر، ولا الجمال أن يُنهي القبح، ولا العدل قادر على أن يجعل الشر مجرد ذكرى ...

التصادم سيظل إلى الأبد، ومن المرهق لنا أن نعيش حياتنا في معركة صفرية من أجل فرض قيم مهما كان نُبلها إلا أنها لن تنتصر وتتصدر المشهد وحدها.

جُلُّ طموحنا يجب أن يوجَّه إلى طرح تلك القيم ودعمها فلربما انتصرت على أيدينا في هذه الجولة، أو بقي أثرها ليكمل مَن بعدنا باقي فصول المعركة.

كل هذا جعلني متقبلاً لوجود طاغية على كرسي الحكم رغم رفضي للظلم، ومتفهماً لأن يخدعني صديق لم يراعِ أصول الصداقة، ويغشني بائع وفي يقينه أنه يمارس نوعاً من المهارة وذكاء السوق، سأرفض كل هذا وأنوِّه إليه وأدعو الناس لكرهه، ومع ذلك لن أكتئب من وجوده وإن أحزنني الموقف لبعض الوقت، ولن أشكو من ذمم الناس ولا أخلاقهم حتى وإن حاربت عوجها.

في الأخير سنعود لما بدأنا به من حديث طليحة لعمر بن الخطاب من أن الناس تتعايش مع البغضاء، تتعايش مع تباين المشاعر، تتعايش بهذه الطريقة لأنه لا توجد طريقة أخرى، اللهم إلا الحسرة والحزن والتباكي على أناس ليسوا أناسًا، وعلى بشر ليسوا كما نتمنى.

نعمة الجهل

لأنني كنتُ متابعًا جيدًا لصفحة بريد الجمعة بجريدة «الأهرام» المصرية التي يردُّ فيها الأستاذ عبد الوهاب مطاوع ـ ﷾ ـ على مشكلات القراء، كنت أعلم جيدًا حجم المأزق الذي يتعرض له الرجل من جراء عبارات التشكك التي تطاله من أنه ينسج خيوط المشكلات التي تُرسل إليه من وحي خياله، والتي كان يردُّ عليها دائمًا بأن الحياة أعظم مؤلِّف، وأن الواقع قادر على أن يذهلك دائمًا بما لا تتوقعه، ويعلو فوق خيالك مهما كان متطرفًا!

شخصيًّا كنت أتعاطف مع الرجل في مرات، وأتشكك أنا الآخر في مرات أخرى، فالحياة التي أحياها ومن حولي تخلو من هذه الدراما العجيبة أو حتى المرعبة التي يصدمنا بها كل أسبوع.

حتى قدَّر الله لي أن أمرَّ بتجارب إقناعُك بها دون أن تتشكك أنت الآخر بي وتتهمني بالاستخفاف بك ستتطلب مني بذل جهد كبير كي أُخفي أكثر من نصف الحقيقة حتى تصبح مقبولة لعقلك، غير عصية على المنطق الذي لطالما آمنتَ به!

فلا أظنك مثلًا ستصدق أنني وأنا في الثامنة والعشرين من عمري قضيت عامًا كاملًا في هروب مستمر لأن شخصية شهيرة لها علاقات تتصل مباشرةً بسلطات لا داعي لذكرها قد رصدت مبلغًا كبيرًا من المال مقابل رأسي، ولا أن عضوًا بارزًا في إحدى الحركات الإسلامية قد قام بالسطو على حقٍّ لي وعندما شكوته إلى جماعته وقاموا بالتحقيق في صحة دعواي والتأكد منها كافؤوه بتعيينه رئيسًا لقناتهم التليفزيونية الناطقة باسمهم، ولا أن خلافًا مع كاتب شهير يُعلِّم الناس التسامح كان يمكن أن يجعلني أُمضي باقي أيامي طريح الفراش عاجزًا...!

لا أظن عقلك يمكن أن يجاري حديثي إذ أخبرك بأني كنت شاهدًا على مفاوضات كان شرطها الدم، تلك التي جعلتني أرى حين أطالع في الصحف أن أبًا يقتل أبناءه الأربعة ثم ينتحر بإفراغ ثلاث رصاصات في رأسه أن ذلك أمر يمكن أن يُصدَّق!

قلبك ـ قبل عقلك ـ سيُنكر فكرة وجود عالم سفليٍّ يحيط بنا، كل شيء فيه له ثمن، يمكنك في هذا العالم أن تشتري كل شيء بالمال، بدءًا من قلب ورئة وحدقة عين إنسان، وانتهاءً بتصفيته جسديًّا.

أنا لا أحدِّثك عن فرضية أن دولة يمكن أن تشن حربًا على دولة أخرى من أجل برميل نفط ولو على حساب آلاف الأطفال والنساء والعجائز... أنا أخبرك عن مدينتك التي تحيا فيها، وربما شارعك الذي تسكن فيه!

شخصيًّا شاهدت هذا بأُمِّ عيني، رأيت حياة الناس إذ تُترجم إلى أرصدة بنكية، وقوانين تصبح معها شرائع الغابة ضربًا من الرحمة، وصدِّقني ـ رأفةً بك ـ سأكتفي بهذا التلميح عن تصريح لو أحسنتَ الظن بي وصدقتني سيجعل نومك أمرًا عسيرًا.

بل إنني أحمد الله أن ما مررت به في هذه الحياة كنت فيه استثناءً بين أصدقائي ومعارفي، ذلك أن حجم الكآبة التي كانت تتملكني في كل مشهد وموقف من هذه السلسلة من الأحداث لا أتمنى أبدًا أن يعلم بها أحد فضلًا على أن يكونوا شهودًا عليها.

وما أدركته بعد مدة، ويطيب لي إخبارك به، أن الجهل بحجم الشر في هذا

العالم هو نعمة من الله عليك أن تشكره عليها، ومالا تعلمه مما يجري على سطح هذه الأرض هو ما يجعل حياتك فوقها مُحتملة.

أنت يا صاحبي في نعيم لأنك حين تضرب مثلًا للشر تلجأ إلى قابيل قاتل أخيه، أو إخوة يوسف متحجري القلوب، أو زوجة نبي الله لوط إذ تُسلم زوجها إلى أعدائه...

تظن حينها أنك تلملم كل أطراف الشر بين أصابعك دون أن تدرك أن كل هذه الأمثلة عيِّنة أولى لتطور الشر والظلم والجبروت!

وصدِّقني، ليس ما سبق حثًّا منِّي لإظلام روحك وبث التشاؤم والكآبة فيها، وإنما هي محاولة لإشعارك بنعيم أنت فيه ولا تدري عنه شيئًا، نعيم الجهل بما لا تقدر روحُك الهادئة على أن تتحمله، نعيم الرضا عن حياة يمكنك أن تختصر مشكلاتها بضغوطك المادية أو الأسرية، نعيم القدرة على أن تغمض عينيك وترحل إلى سبات عميق غير مضطر لأن تجعل إحداهما مفتوحة على الدوام قَلقًا وارتيابًا، نعيم الدهشة إذ تطالع صفحات الحوادث وتتعجب مما يحدث في دنيا الناس من جرائم دون أن تدري أن أسوأ الجرائم وأخطرها لا يظهر على السطح وغير مسموح بنشرها، نعيم الأمن في عالم غير آمن، والراحة في مجتمع مرعب، والقدرة على الضحك والابتسام في حياة مخيفة...

نعم... أنت في نعيم حين تظن أن ما تراه هو ما يحدث.

ذات يوم نصحني أحد أصدقائي بمراجعة طبيب نفسي لأنني - حسبما لاحظ - لم أعد أندهش من شيء، ردود أفعالي على الأمور العظيمة صار هادئًا أكثر مما يجب، حتى إنني حين تعرضت لمحاولة سرقة بالقوة في أثناء سفري على أحد الطرق من بعض الأشقياء كان رد فعلي مدهشًا حتى لقوات الشرطة التي حققت في الأمر في ما بعد، لم يستطيعوا فهم كيف سوَّلت لي نفسي رسم خطة المقاومة والاشتباك وأنا أعزل والأسلحة مشهرة في وجهي، ولا كيف استطعت أن أكتب يومها مقالًا وأرسله للكاتب الصحفي بلال فضل لينشره في جريدة «المصري اليوم» في الصباح التالي ليكون هذا المقال هو السبب في القبض على المجرمين.

للأسف الدهشة نعمة حُرمت من حقي فيها، والحمد لله أنه مازال عندي رصيد من الفرح والحزن، والخوف والأمن، والرضا والنقمة، تساعدني على إكمال ما تبقى من عمري مشتركًا مع بني الإنسان.

بيد أن عزائي الأكبر هو حجم التجربة التي تقف خلفي حين أكتب للناس، تجربة رغم عِظم تكاليفها فإن وقْعها على روحي جعلني مُلمًّا بصعوبات الحياة،

وهموم الناس، وضغوط الأيام عليهم، فلا أكذبهم خبرًا، ولا أخدعهم بمثالية زائفة، ولا أنعش أرواحهم بأمل كاذب.

ولعل هذا يفسر لأصدقائي المقربين لماذا أغضب حين يتهمني أحدهم بأني أحد دعاة التنمية البشرية الذين يكتبون للناس كلامًا مُعلبًا، وأنني واحد من دعاة «إسلام السوق» كما وصفني أحد الحمقى في مقال له، فكيف لا أغضب وكل حرف أكتبه له في واقع الناس شاهد، وعليه ألف برهان!

لقد استطردت قليلًا فمعذرةً، وأعود إلى صلب الموضوع وأقول إنك بحاجة إلى شكر نعمة الله عليك إذ تملك القدرة على أن تتملكك الدهشة حين ترى رجلًا يعذِّب كلبًا، أو تطرح سؤالًا استنكاريًّا عن قدرة أحدهم على الغش والخداع والكذب.

أنت في نعيم يا صاحبي لأن همومك على قدر تحملك، وضغوط حياتك التي تتذمر منها مقبولة في عُرف الناس، وآلامك التي توجعك لها دواء حتى وإن كان صعب المنال.

أنت في نعيم كبير لأنك إذ تقرأ هذه الكلمات تراها غير مقبولة، وأنني ما كان يجب أن أكتبها لك!

يا عزيزي كلنا مكتئبون

في دراسة أجرتها مجلة علم النفس الأمريكية في العدد الثاني لعام 2014 وبمسح قاموا به على أكثر من 132 دولة أكدوا أنه كلما زاد الدخل وتحققت الرفاهية كان الاضطراب النفسي أعمق، وصراع الناس حول تحقيق معاني الغاية والمعنى أكبر، بينما لدى سكان البلاد الفقيرة إحساس بمعنى الحياة متوافق مع قدراتهم النفسية، وبالتالي يكون الرضا عن أنفسهم أكبر، ومعنى وجودهم في الحياة أكثر وضوحًا!

فإذا أضفت هذه الدراسة إلى مجموعة الأبحاث التي أكدت أن البلدان المنكوبة بالحروب أو الأزمات الطبيعية تقل فيها نسب الانتحار بشكل حاد، فأظنني سأقولها مرتاح الضمير إن هناك «اكتئاب الرفاهية»، اكتئاب يصيبنا

لأننا قد أنهينا حل مشكلاتنا المتعلقة بالوجود وبدأنا في الصعود درجة أعلى في هرم الاحتياجات، فصار لدينا اكتئاب لعدم تحقيق غاية نفسية، أو مكانة أدبية، أوانتصار شخصي.

اكتئاب نملك رفاهية الوصول إليه، ورفاهية دفع ثمنه، ورفاهية التماهي معه!

اكتئاب لا يملك الموظف البسيط أو الفلاح المُعدم، أو العامل الكادح أن يصل إليه.

اكتئاب يجعلنا لا نفارق الفراش، ونخرج بلا هدف لنهيم على وجوهنا، ونجلس مع من يشبهنا طوال الليل نشكو ضيق الصدر، وحالة التيه، وضغط الزمن وقسوته.

اكتئاب لا يدفعنا للانتحار ليس لأننا أكثر إيمانًا من فعل ذلك، ولا حتى أقل شجاعة من القيام به، وإنما لأننا نؤمن في جانب ما بداخلنا بأن حياتنا ـ رغم عبثها الذي ندَّعيه ـ ليست رخيصة إلى هذا الحد!

ولأن الموظف المثقل بالأعباء لا يملك القدرة على النوم للظهيرة، ولن ترحمه المسؤوليات من دفع ثمن اللهو طوال الليل والشكوى، فعليه لا يجرؤ

على دخول عالم الاكتئاب ولا الدوران في فلكه مهما كانت أزماته ومشكلاته!

نغمة الاكتئاب التي ندَّعيها تلك ليست اكتئابًا حقيقيًّا واقعًا، ليست أزمة وجودية طاحنة كما نردد، ليست أزمة نفسية رغم كونها أزمة مع أنفسنا، إنها أزمة خلق الأمل، وصناعة الهدف، وإيجاد معنى غير مزيف لما نقوم به.

أزمة أننا لسنا على شيء...

أعتذر عن أي فهم خاطئ قد يصل إليك من أنني أستهين بمرض الاكتئاب، لأن هذا ليس حقيقيًّا، أنا أستهين - واسمح لي - بكآبتك!

أنت كئيب، تحمل أفكارًا كئيبة، خَدَعَكَ العالم الافتراضي، وذبحتك حملات التسويق، ولم تمهلك تروس الرأسمالية التي تحكمنا حتى ترتاح قليلًا وتجلس مع نفسك لبعض الوقت!

أنت ابن السوشيال ميديا، المولود في عصر الإعجابات، ونسب المشاهدة، ومشاهير البطالة والفراغ.

تفتح تطبيقات التواصل الاجتماعي فور فتحك لجفنيك، تشعر بأن هناك شيئًا جللًا قد تم ويجب أن تُلمَّ به خُبرًا.

تقضي ساعات طوال في البحث عن هذا الحدث، فتتعثر بأحدهم وهو يخبرك

بأنه يشرب قهوته المفضلة الآن في «ستاربكس» ولا ينسى وضع موقع المكان رغم أن لا أحد طلب منه ذلك، وأخرى تضع صورتها المبهجة والتي اجتهدت كي تظهر عفوية وهي ذاهبة لعملها، وآخر يضع صورته مع كتاب ما، أو يبرز فتحة السقف في سيارته الحديثة، أو يعمل على إظهار انعكاس صورة هاتفه على مرآة المصعد كي نعرف نوع الهاتف وقيمته...!

وأمام كل هذا أبحث أنا الآخر عن صورة ما جذابة تخبرهم بأنني أتمتع بالحياة مثلهم.

بلا شك لن أعكس صورة عفوية، أيُّ إثارة يمكن أن تسببها الحقيقة؟ ما المدهش حين أخبرهم أني أمارس حياة طبيعية؟

منشوراتهم الاستثنائية يجب مواجهتها بمنشور استثنائي، وصورهم التي تحوي شيئًا مميزًا يجب أن أجاريها بوضع صورة تحتوي على شيء ما كذلك، حتى إن كان هذا الشيء شعورًا غير حقيقي.

سأتجمل إذن كي أنال إعجابهم، نعم صورتي تلك قد اخترتها من وسط عشرات المحاولات، ومرَّرتُها على محسِّنات جعلتْها بهذا الشكل الرائع، بيد أن الأهم أنها تبدو عفوية صادقة لا تجميل فيها ولا تزوير!

هذا هو الأمر إذن، عالم من التجمل يحيط بي وبك، ولكي نشارك فيه علينا أن نرتِّب واقعنا الحقيقي بما يتلاءم مع واقعنا الافتراضي!

«لقطة اليوم» أهم من اليوم، سأضع صورتي وأقضي يومي في جني وحساب عدد مَن أُعجبوا بها وطبيعتهم!

نعم، هذا العبث يحدث، ومع الوقت نجد أنفسنا في منطقة غريبة، فلا نحن في بهاء الصورة التي صدَّرناها للناس، ولا نحن رائعون كما يخبروننا في التعليقات، الحقيقة الوحيدة أنه لا أحد يشعر بنا لأننا قلنا لهم زورًا...!

لا أستطيع حل مشكلاتي مع زوجتي فأكتب أن «الزواج مقبرة الحب»، ولا تستطيع مواجهة ضغوط الواقع فتكتب أن «الحياة اقتسمها اللصوص وأصحاب الحيل»...

يدعمني الناس ويشجعونك، كلانا استطاع أن يمارس حيله النفسية في مواجهة مشكلاته.

التعليقات وإشعارات الإعجاب تخبرنا بأن ما نحن فيه قضية قومية، فنذهل عن مواجهة مشكلاتنا الواقعة ونكمل مسيرة العبث.

الأمر لم ينتهِ بعد...

وسط كل هذا الهراء ستجد إعلانًا يحدِّثك عن شيء يراه المُعلن مهمًّا لك وتحتاج إليه!

مئات من الإعلانات ستفاجئك في كل دقيقة، بين هُنيهة وأخرى هناك رسالة إعلانية ذات شكل جذاب تصدمك بحقيقة أنك لم تصل إلى ما تتمنى بعد، ولأنك مثلي لم تهذِّب نوازع الطمع بداخلك، وتحدد سقفًا منطقيًّا لرغباتك، فبلا شك ستظل تنظر إلى كل إعلان وتحسب كيفية الحصول على ما به من سلعة أو خدمة، والنَّفسُ لا تشبع، وها هي المصيبة تَلوح لي ولك في الأفق، لقد امتلك فلان الأحمق نفس السيارة التي نتمناها، واستطاع غيره أن يحصل على الهاتف الذي طمعنا فيه فور طرحه في الأسواق، وصديقتكِ يا عزيزتي ستسافر إلى دبي مع زوجها وأنتِ مازلتِ لم تحسمي أمورًا عالقة في زواجك...

هل تتحرك بداخلنا دوافع حسد للآخرين؟ نعم يحدث هذا، فنشعر بالذنب، وبالتالي تزيد الكآبة.

والحل؟!

تسألني الآن بعدما سألت نفسك سابقًا؟ تريد حلًا؟ دَعْنا نرَ كيف كانت اجتهاداتك في فض هذا الإشكال!

في لحظة سابقة سخرت من مشاهير السوشيال ميديا، بلا شك فعلتها وربما تفعلها...

قلت لنفسك: هؤلاء الفارغون لا يملكون لنا إلا حزمة من المشاعر السلبية يصدِّرونها لنا، ومن الجيد متابعة الناجحين الذين يكتبون للناس كلمات محفِّزة تساعدهم على مواجهة ما بهم، بالضبط أهل «التنمية البشرية» هم الحل!

ماذا لدى هؤلاء القوم؟

حزمة قيم، نعم هذا ما يبيعونه لنا، عبارات تحمل في طياتها منظومة قواعد بها ما هو أخطر مما واجهناه سابقًا!

وسط شعارات تتحدث عن كونك مهمًّا وفريدًا، ولم يخلق الله لك شبيهًا على ظهر هذا الكوكب، ستجد عبارات لوم وتوبيخ من نوعية «بينما أنت نائم هناك من يبني مجدًا»، وأنك مُقصِّر في حق نفسك وطموحك وأحلامك.

والأسوأ أنهم سيخبرونك بأن تبتعد عن الفاشلين، والمحبطين ومَن لا يملكون أهدافًا عظيمة تحرِّكهم للأمام... إنهم يقصدوننا بكل تأكيد!

للأسف، التنمية البشرية التي أنتجتها العولمة وحددت أركانها الرأسمالية، مليئة بقيم الفردانية والأنانية، وبها غير قليل من الاحتقار الموجَّه إلى غالب

بني البشر من العاديين أمثالنا، الذين يجب الهروب منهم فرار السليم من الأجرب.

لكنّ عبارات الأمل والتفاؤل والطموح مهمة، هكذا ستخبرني...

الحقيقة أنها هي الأخرى صورة مرسومة بإتقان، ذلك أنها غير معنية بتجربة المرء الفردية، ولا تعبأ بحجم معاناتك، ولا تعترف بالفروق الفردية بين الناس، ولديها إطار محدد سلفًا تضع فيه الناجحين والعباقرة، يأتي على رأسها الشهرة وعلوّ الذكر وتحقيق مكاسب مادية، وغالب أساليبها في عالمنا العربي يعتمد على التحفيز الموجَّه إلى المشاعر، مع إهمال ـ ربما يكون متعمَّدًا ـ لقيم الخير والجمال والتعاون وشد الأزر.

لم يبقَ لنا إلا الدين إذن...

أوافقك على أن العقائد تريح أصحابها، وتعطيهم طمأنينة داخلية، وتحميهم من عدد غير قليل من وساوس النفس وتقلباتها، لأن الإيمان ببساطة ضد الحيرة، الإيمان يسد بوابة كبيرة تدخل منها الأسئلة الوجودية، كاستيعاب معنى حياتك في الجملة، وقيمتك في العالم وأهميتك، وتعفيك من مشوار فهم الحياة والموت والخير والشر وظواهر ما وراء الطبيعة.

لكننا سنواجه مشكلة أخرى هنا، فكثير من أصحاب الأمزجة العكرة مثلي ومثلك في الغالب لديهم تصور غير شمولي بالنسبة إلى الدين الذي يعبدون الله به.

فما الذي يمكن أن يفعله الدين في رؤية كئيبة أخذت من العقيدة أشتات قيم تتحدث عن آخر الزمان، وأن اليوم الذي نحن فيه أكثر شرًّا مما سبق، والقادم أسوأ مما نتوقع؟

كيف سيضمِّد أحدنا جراح روحه وبلسمُه الشافي أحاديثُ منتقاة تتحدث عن الدنيا التي لا تعدل عند الله جناح بعوضة، والتراب الذي سيتساوى فيه الجميع؟!

فلو أضفت فوق هذا أن بناء عقيدتنا الدينية أصلًا لم يتم على مهل وتدبر وفهم، سنجد أن غير قليل منا يتحول جزءٌ من اكتئابه إلى الدين نفسه، تنتابه حالة من عدم الفهم لكيفية إدارة ربه للحياة، وكيف يمكن أن يصفه بالرحمة والعدل مع كل هذا القدر من التخبط الموجود حوله...

أو على الأقل، كيف لا يثمن خالقه ما يقوم به من شعائر دينية كان يجب أن تُريحه وتُخرجه مما هو فيه!

ولعل هذا يفسر لنا «موضة الإلحاد» التي تنامت في أوساط المراهقين والشباب، والتي تطالنا شظاياها أيضًا عبر شبكات الإنترنت.

يا عزيزي هذا الواقع الافتراضي الذي ألقى تعويذته علينا فأجبناه ونحن تائهون يجب أن يعاد النظر فيه، نحن مكتئبون وكئيبون بحق، لأن مساحة الوهم زادت على قدرتنا على التحمل، والرتوش أضاعت الصور الحقيقية للأشياء، مما كان له كبير الأثر في تغيرات كثيرة حدثت بداخلنا.

وعليه فإن إنهاء هذه الحالة من الكآبة يحتاج إلى خطة، ويقينًا نحن بحاجة لمن يفتح لنا طريقًا مقترحًا للحل...

لذا فاسمح لي أن أنقلك إلى الصفحة المقابلة لنتحدث عن شيء مهم يخص هذا الأمر...

العيش في كوكب مزيف

بعد ساعة أو يزيد قضتها في الشكوى من زوجها الذي يسيء معاملتها، وبعدما تبين لي أن سوء خلقه قد ترك آثارًا سيئة على روحها أفقدتها كامل ثقتها بنفسها، قررتُ نصحها بآخر ما أحب أن أنصح به أحد: «الانفصال».

غير أن ردة فعلها العنيفة، وانزعاجها التام من الفكرة، دفعاني إلى مناقشتها دون رغبة حقيقية منها في جدوى طلبي هذا، ومحاولة مني لفهم سبب كل هذا التوتر والارتباك.

حاولتْ أن تزوِّر لي كلامًا عن أهمية العِشرة، وصعوبة العيش في مجتمع لا يتسامح مع لقب مطلقة، قبل أن تفاجئني بقولها إنها غير مطمئنة إلى أن مشكلتها تستحق هذه المخاطرة، وإنه لعل لزوجها فلسفته الخاصة، وربما يُخفي

خلف شخصيته ـ التي وصفتها بالشيطانية منذ قليل ـ سببًا منطقيًّا لم تسعفها خبرتها لفهمه!

وزادت دهشتي أن صارت تعدِّد لي في شريكها صفات حسنة غير ذات قيمة في مشكلتها، ككونه مثلًا لطيفًا مع الغرباء، وأصدقاؤه في العمل يُثنون عليه ويرونه رجلًا طيب المعشر، وأنه ـ رغم إهاناته المتكررة ـ لم يبادر لطلاقها حتى الآن، مما يعني أنه يحمل مشاعر طيبة لها! غير أن ما لم أتوقع سماعه قولها إنها ربما كانت هي أصل المشكلة، والمسكين هو من يعاني من عِشرتها، مما يدفعه إلى إساءة معاملتها وإهانتها!

وما توصلتُ إليه في نهاية نقاشي معها، وأود أن أجعله مبتدأ لحديثي عن قضية مهمة تتعلق بحالة الإحباط والكآبة التي نعيشها، أن كثيرًا من الناس حولنا لديهم أزمة كبيرة في تقديرهم لذواتهم، وبخس كبير عندما يتعلق الأمر بـ«تسعير» قيمتهم الحقيقية!

في حالة الزوجة تلك، قام الزوج بإعادة تسعير زوجته، وتهميش نقاط قوتها، وممارسة ضغوط متكررة عليها دفعتها للتشكك حتى في حقوقها، وقيمة كرامتها، وصحة موقفها.

أنا هنا لا أتحدث عن التسامح وإنتاج مبررات محمودة خلقتها الزوجة

من باب التعقل والصبر وإعطاء فرصة أخرى... أنا أكلمك عن سحقٍ كامل للشخصية، وارتباك كبير في اتخاذ موقف حاسم، وسهولة في إيذاء النفس ولومها عوضًا عن محاسبة الجاني أو حتى المطالبة بما تراه حقًّا لها!

وفي حياة كل منَّا كثيرًا ما يحدث هذا الضغط من أطراف عديدة، يوسِّعون الفجوة بيننا وبين أنفسنا، ويُدخلوننا في «ماكينة تسعير» تُقيِّمنا وفق أبجديات سوق جديدة، تطبع أرقامها علينا بناءً على قيم سوقية لم نوافق عليها، لكننا رغم كل شيء نستسلم لها!

لنبدأ القصة من أولها...

كل إنسان على سطح الأرض يملك شخصيته الخاصة: لديه أحلام، تطلعات، آمال، مخاوف، ويسعى في مشوار حياته لتحقيق تطلعاته تلك، أو حماية نفسه من مخاوفه المتوقعة، ونجاحه وفشله يبدآن ـ بعد مشيئة الله ـ من ثقته بذاته، وإيمانه بمقدرته على المضي في هذا الطريق أو ذاك، ثم تأتي التجارب التي يمر بها أو يشاهدها، والأشخاص الذين يتعامل معهم، ليساعداه إما على النضج وإما على التشكك والارتباك.

وأنا في العاشرة من عمري تقريبًا حدث أن كتبت قصة قصيرة، وعرضتها على أحد أقاربي الذي جاء إلى بلدتنا بعد زمن قضاه في التدريس بجامعات أوروبا، وعلى كِبر الرجل وعظمته في عيني كان صِغري وتفاهتي في عينه، وكانت سخريته منِّي ومما كتبت أمرًا موجعًا صدمني بقسوة ومنعني من محاولة إعادة فكرة الكتابة ثانيةً، غير أن أحد أساتذتي لفت نظره انشغالي الشديد بالقراءة، فقال لي مداعبًا - أو ربما مشجِّعًا: «أرى أن اسم كريم الشاذلي هذا يليق بكاتب مثل الكتاب الذين تقرأ لهم».

فكان أن عدت إلى محاولة الكتابة، وسط اهتزاز في ثقتي بنفسي وارتباك، وكلمات الرجل الأول المستهزئة ترن في أذني.

كلمات قريبي كانت فعلًا موجهةً نحوي، صنعت بداخلي فجوة، وحطمت ثقتي بنفسي، وكان رد فعلي تقديرًا متدنيًا للذات، وتشككًا في الموهبة، وإحباطًا مبرِّرُه أن من قام بتقييمي رجل ناجح يشار إليه بالبنان، ويظل السؤال القائم هو: ماذا لو كنتُ قد تلقيت استهزاءً آخر، أو استهانة إضافية من مدرِّسي بدلًا من كلماته المشجعة تلك؟!

وهنا يمكن الإمساك بالسبب الأول لإحباطنا وكآبتنا، وهي المشاعر المتولدة جراء تقييمنا السيئ لأنفسنا، والذي قد يكون انعكاسًا لتقييم الحياة وساكنيها

لنا، وأنا وأنت يتم تقييمنا كل ساعة، أكثرها شيوعًا محاولات تقييمك اليومية بناءً على مركزك الوظيفي، ورصيدك البنكي، ونوع هاتفك وسيارتك بل وماركة حذائك وسروالك!

فيتولد بداخلك رد فعل، سواء كان إحباطًا واهتزازًا في ثقتك بنفسك، أو غضبًا وكراهية للناجحين من حولك، وتبدأ في الدفاع عن نفسك، إما من خلال التسليم بكونك غير كفء لما تود الحصول عليه، وبالتالي توديع معترك المنافسة والمحاولة والنجاح، وإما من خلال العمل على تشويه نجاحات الآخرين والتقاط كل ما من شأنه أن يعزز إحساسك بأن الحياة غير عادلة.

هو رد فعل عاطفي تحاول من خلاله صنع رداء يبرر لك ما أنت فيه...

وللأسف مع الوقت وكذلك مع تكرار التجارب، يصبح هذا الرداء منظومة قيم تحكمك، فيكون الغضب والتشاؤم وعدم الإيمان بنفسك وقلة اكتراثك للآخرين، شيئًا متأصلًا فيك، فأنت في الأخير ترى أنك إما تستحق ما أنت فيه وأنك لو كنت أذكى وأفضل من ذلك ما كان واقعك بهذا السوء، وإما لا تستحقه، وتصبح الكراهية والغضب وربما الغرور والكبر هي ما تحاول تصديره للحياة والناس.

الشاهد أنك تكتب قصة حياتك بناءً على «المطبات» التي تتعرض لها، وترى أنك واحد من اثنين:

الأول، أنا إنسان تحدث لي دائمًا الأشياء السيئة، لأنني سيئ ـ أو غبي ـ وأستحقها.

الثاني، أنا إنسان تحدث لي دائمًا الأشياء السيئة، لأن الناس سيئين والحياة غير عادلة.

والنتيجة أن تظن نفسك مهزومًا في معركة الحياة، ولا تدري أنك مهزوم في معركتك أنت مع ذاتك، فالحياة التي خسرتها هي الحياة التي تتصورها، وقلقك النفسي وكآبتك هي حمولتك النفسية من ردة فعلك على الهوَّة بين ما كنت ترجوه لنفسك وما تجنيه ممن حولك، ومَن حولك يعيشون بقيم كثيرة مزوَّرة، وأنت لا تدري أيَّ وهم تعيش فيه، سواء ما صنعته بداخلك، أو ما يصنعه الآخرون بك!

والحل...؟!

لا حلول سهلة للأسف، إنك لن تستطيع التشكيك في قيمك الحالية ما لم تؤمن بعِظم خطورتها، وكذلك بوجود قيم أخرى أعظم وأهم وأكبر منها، بل وبقدرتها على إسعادك ومساعدتك.

من اليسير إعطاء بوصلة لتائه ترشده إلى طريق نجاته، غير أن الصعب هو التشكيك في البوصلة التي يحملها في يده ويمضي على أثرها قُدمًا، حتى إن كانت بوصلته الحالية تزيد من ضلاله وتخبُّطه.

الناس يتوحدون مع مظلوميتهم بشكل مدهش، والضباب الذي يحيط بهم يشوِّش حتى أبجديات بدهية لا شك فيها ولا جدال.

الناس يفكرون ويقررون بعواطفهم ثم يذهبون لتأكيد هذا الأمر باستدعاء الشواهد العقلية، والمأساة الكبرى أن العواطف خوَّانة، تخون أصحابها وتضلِّلهم، وتظل تخوِّفهم كثيرًا من التمرد عليها.

وعليه فإن ولادة الإنسان الحقيقية في الغالب تكون قيصرية، لأن وجوده السابق في رحم الحياة حرَّكه بالكُلِّية فلم يعد في وضعية صحيحة تسمح له بخروج سهل يسير، سيحتاج إلى مشرط جراح كي يُخرجه من وضعيته تلك، سيحتاج إلى موقف وقرار حاسم، سيحتاج إلى توقيت محدد بدقة، سيحتاج إلى فعل ما يلي رغم صعوبته:

أولًا ـ الإيمان: سنحتاج ابتداءً كي نخرج من هذا النفق إلى أن نراجع إيماننا، ونعيد النظر فيه، بدءًا من الإيمان بخالقك، وانتهاء بالإيمان بنفسك!

فكونك تؤمن بالله لا يعني شيئًا ما لم تؤمن بقيم هذا الإله بداخلك.

لعلك سمعت مثلي قول أحدهم إن «المؤمن لا يكتئب»، وهذا قول صحيح حتى إن تم توظيفه بشكل خاطئ أو متطرف...

فالصلاة مثلًا لا تُنجي المكتئب من اكتئابه، الذي يُنجيه هو إيمانه المبدئي بعدل هذا الإله ورحمته، وتدبر أحكامه، والاعتراف بأحقيته في تحديد المسار بغضّ النظر عن فهمنا لكامل حدود المسألة، وليس في مثل هذا الإيمان استسلام إلا في ما يختص بحركة الحياة التي لا يد لك في تغييرها أو اختيارها، لكنك ستكون حرًّا في حركتك أنت وخطواتك وردود أفعالك.

صومك وصلاتك وشعائرك كلها لن تفيدك وفي قلبك غُصّة من أحكام هذا الإله وتذمُّر من وقوفه صامتًا أمام ما يحدث لك، ستحتاج إلى أن تفكر وتسأل وتخوض نقاشًا ذاتيًا كي تحسم هذا الأمر، سترتاح فقط حينما تسجد لإله تؤمن بعدله ورحمته وحبه لك ومعاداته للظالمين.

وأنا هنا لا ألوم عليك حيرتك ولا أتهم إيمانك الشخصي...

لقد ضربت الحيرة قلوب أنبياء مرسلين من قبلك، لكنني أنبّهك إلى أن تصالحك مع إيمانك سيعني تصالحًا مع نفسك، وتوجيه طاقة الغضب والإحباط إلى تمرد مطلوب تجاه ظروفك القائمة لا إلى المتحكم فيها، لأن

التجربة أثبتت من قبل أن مناطحة الجبل لم تزحزحه أبدًا، ورفض قواعد اللعبة ـ مهما بدت قسوتها ـ لم يساعد لاعبًا على الربح.

ثانيًا ـ هدم الفجوات: إيماننا فيه فجوات مهما ادَّعينا العكس، فجوات صنعتها نسخ إيمانية أخرى حولنا.

أنا كذلك أقصد إيمانك بدينك، وأيضًا إيمانك بنفسك، ويقيني أنك ستفهم ما أرمي إليه من مغزى، وهو ألا تسمح بوجود فجوات يصنعها التضارب بداخلك؛ فما بين حفظك لآيات وأحاديث بل حِكم وأمثال تتحدث عن الرضا، والكفن الذي لا جيوب له، وراحة البال التي لا يضاهيها شيء، وبين انزعاجك اليومي حينما تفتح تطبيق «إنستجرام» وتبدأ بداخلك معركة روحية غاضبة، تحدث هزيمتك.

بين مصمصة شفاهك وأنت تتحدث عن الماضي الجميل والناس الطيبين الذين ذهبوا، وفي نفس الوقت غير راضٍ عن حال هو يقينًا أفضل من حال السابقين، تحدث هزيمتك.

أنت الذي سمحت لهم بأن يضعوا «باركود» يحدد سعرك في سوق نخاستهم، أنت الذي أعطيتهم الإذن بمعايرتك حينما تحمل هاتفًا متواضعًا، ولا ترتدي ملابس تزيّنها الماركات العالمية، ولا تملك حتى الآن كوبًا يحمل اسمك من

«ستاربكس»، والكارثة التي لا تستطيع مواجهتها هي أنك - ياللعار - لم تتمكن من حصد إعجابات على صورك ومنشوراتك على «فيسبوك» يتناسب مع ما تبذله من جهد، ولم تجنِ آلاف الدولارات من قناتك على «يوتيوب» بعد!

نعم، أنت الذي سمحت لهم بأن يعبثوا بروحك حينما جعلوك تزدري عملك اليومي لأنه لا تنطبق عليه «معايير الطموح» التي وضعها أهل التنمية البشرية، وتتشكك في مجمل قيمك لكونها لم تضعك في مصاف الناجحين.

حسنًا، أعتذر عن تلك الحماقة التي أرتكبها، أعلم أن مشكلتك أكبر من كل هذا، وجسدك المتهالك وعينك الزائغة هي انعكاس لمستقبلك غامض الملامح، ولكن ألا تظن معي أن أزمتنا قائمة على أننا لم نقم بتعرية الحقيقة ونزع الزيف عنها، حقيقة أنك لست كل ما يقال لك مذ كنت طفلًا حتى اليوم، وأن كينونتك الحقيقية قد تاهت وسط كل هذا الزيف، وأن جزءًا من هذا الخداع كان جراء تسليمك بأبجدياتهم...؟

أحقًا، لم ترَ كل هذا بعد...؟!

يا صاحبي أنا لا أمارس عليك دور الأستاذ، ولا أجرؤ على أن أجلدك بسياط اللوم والتقريع، فكلنا نعاني من العيش في كوكب الوهم هذا، لكنَّ أمانة الكلمة تقتضي منِّي أن ألقي بالحقيقة في وجهك كما هي.

حقيقة أننا بحاجة إلى هدم الفجوات بين إيماننا الحقيقي بأنفسنا، وتشكيكهم المستمر فينا، هدم الفجوة بين ما نحتاج إليه حقًّا كي نكون سعداء وما يبيعونه لنا بحجة أنه سيجعلنا سعداء.

صَمُّ الأذن عن سماع ضجيج العالم كي نستطيع سماع صوت أرواحنا، وتصميمنا على أن نكون سعداء بشروطنا، وليذهب إيمانهم المصطنع إلى الجحيم.

وهذا يدفعنا لقول ثالثة النصائح كي تعيش هانئًا فوق كوكبنا هذا...

النضج : لقد اتهمتُ لتوِّي عالمنا هذا بأنه مزيف وقبيح، وتبريري لموقفي قائم على ادِّعائي أننا نعيش في زمن المراهقة.

العالم من حولنا يتحلى بصفات المراهق، حيث لكلام الناس قيمة أكبر، والادّعاء جزء مهم من أبجديات التسويق، ومحاولة التجمل والتأنق باتت أصلًا من أصول النجاح.

المراهق نَزِق، مَلُول، سريع التقلب، يعطي للخارج كامل اهتمامه، ويهمل دائمًا النظر إلى داخله، وكوكبنا هذا به من هذه الصفات الشيء الكثير.

عليك إذن أن تتمهل وتفهم كيف تصبح ناضجًا، والنضج ببساطة يعني

الأصالة، أن تعي جيدًا قيمة أن تكون حقيقيًا، وأن تكون حقيقيًا يعني ـ ببساطة كذلك ـ أن تعبِّر عن قيمك بغضِّ النظر عن استحسان الناس أو رفضهم لها.

الناضج يدرك جيدًا أن وفاءه لمنظومة القيم التي تحكمه هي وحدها التي ترفع من تقديره لذاته، وتروي امتنانه لنفسه، وتُغنيه عن مقالة كل قائل، وتريحه مهما ذاق من مشاقَّ وأهوال.

المراهق لا يكذب لأن افتضاح كذبه خطر، بينما الناضج لا يكذب لأنه ببساطة لن يستطيع أن ينظر للمرآة في ارتياح، ولن تكون وسادته مُتكأ طمأنينته، بل تعنيفًا وعذابًا مستمراً.

المراهق يهتم بالثناء المغالى فيه ويطرب له، يحب أن يُحمد على ما فعل وربما على ما لم يفعل، بينما الناضج لا يهمه قول الناس عنه ما دام مدركًا حجم ما فعل وقيمته.

حدث يومًا أن اتهمت الصحافة الممثلةمارلين مونرو بأنها ليست جميلة وجذابة كما تدَّعي، وأن ملابسها التي صممتها كبرى شركات الملابس، وأدوات الزينة الغالية هما عدَّتها الوحيدة، وأن جمالها عاديٌّ غير لافت للنظر، فما كان من المرأة الواثقة من حسنها إلا أن أخرجت للصحف صورها وهي ترتدي «جوال بطاطا» لتثبت لهم أن جمالها حقيقي لا شُبهة فيه!

للأسف وقعت الشابة المسكينة في شَرَك المجتمع، ذلك أنها دافعت عن الزيف بزيف آخر، فزادها التحدي ـ رغم أنها ربحته ـ خواءً وكآبة أديا بها إلى الانتحار وقد بلغت ذروة النجاح وفق مقاييس مجتمعها المزيف.

أشعلت الفتاة الساذجة الشمعة من طرفيها بحثًا عن السعادة والتقدير فانطفأت حياتها سريعًا، وهذا حال كل من يترك نفسه رهينة لمجتمع مراهق، يحدد له القيم والمعايير، ويرسم له الطريق.

في سجنه الذي أورثه المرارة والندم كتب أوسكار وايلد أن «الرذيلة الكبرى أن تعيش مصطنعًا»، لأن الاصطناع هذا ـ الذي هو أولى صفات المراهقين ـ هو لا غيره ما سيجعلك بعيدًا عن نفسك، تمشي، وتتحدث، وتقول، وتصمت، فقط من أجل شيء واحد هو إرضاء العالم الذي تعيش فيه، حتى تبتعد عن نفسك، وتنفصل عن ذاتك، وتموت ببطء وتعاسة، حتى وإن عشت ألف عام!

وأختم بسؤال لعله يدور في ذهنك عن موقفي من الحياة، وهل أنا عدائي تجاه الدنيا ومَن فيها؟!

وأجيبك بصدق كامل: بالعكس، أنا أشفق على هذا العالم، أشفق على نفسي

وعليك وعلى كل من يمضي بيننا حاملًا قيمًا مزورة، مرتديًا ابتسامة مصطنعة، محمَّلًا بأحلام وأمانٍ وطموحات لا توفر له السعادة والهناء.

في كل الأحوال نحن لا نكره المراهقين حتى وإن اختلفنا مع أساليبهم، حتى وإن ضجرنا من نزقهم المؤذي لهم ولمن حولهم.

سنشفق عليهم، لكننا، ولا ريب، سنوبِّخهم ونزجرهم ونقسو عليهم لبعض الوقت، وفي يقيننا أن قسوتنا تلك حمايةٌ لهم من الحياة إذ تؤذيهم، ونُصحُنا المجاني - مهما كان ثقيلًا عليهم - أهون بكثير من دروس الأيام، وأقل كُلفة من عاقبتها.

سعادة كافية

مثلُك تمامًا: حلمت بهاتف وظننته سيجلب لي السعادة، وأحببت فتاة ورهنت راحة بالي بالارتباط بها، وادَّعيت أن منزلًا بعينه، وسيارة اخترتها بدقة، ووظيفة في مكان ما، ورصيدًا بنكيًّا ذا أرقام محددة، يمكنها أن تجعلني هانئ البال.

مثلُك تمامًا: حققت بعضًا مما أتمنى وطمعت في ما هو أكثر. ارتحت قليلًا ثم تمنيت المزيد.

أجل ـ مثلك ـ ما زلت أنظر بعيدًا، وأرى أن قفزة أخرى ستجعلني أصل إلى القمة، وكلانا يعلم أن لا قمة تُرضي غرورنا، ومهما وصلنا إلى أشياء نتمناها

وربطنا سعادتنا بها تظهر أمامنا أشياء أخرى، وأمانٍ جديدة، وأحلام أكثر زهوًا وبريقًا.

أنا أعلم ـ وأنت كذلك ـ أن بحر الحياة مالح، لا يروي عطشًا، وإنما يزيد ظمأنا كلما اغترفنا منه، ومع ذلك ما زلنا نكابر، نوهم أنفسنا بأن العيش لا ينبغي إلا في فسحة الأمل، ونوهمها أكثر حينما نجعل آمالنا منفصلة عن أرصدة الروح والمشاعر.

كلٌّ منَّا يعيش أسيرًا لتلك القفزة الإضافية، وتمضي حياتنا في قفزات لا تنقطع، حتى تلقي بنا قفزتنا الأخيرة في مستقرٍّ ضيِّق، وحولنا أحباب وأصدقاء يودِّعوننا متمتمين بأن هذا حال الدنيا، وأن مآل ابن آدم إلى تراب...

مثلك تمامًا: تساءلت عن قدرتي على معايشة الشيخوخة، وكيف ستكون حياتي مقبولة وحقيبة أدويتي إلى جانبي دائمًا؟ وكيف سأحيا بلا مغامرات؟ وهل سأتحمل الحياة وأنا عبء عليها؟ وهل سأقوى على ضجر الوهن، ووجع الحاجة، ومذلة الاحتياج؟

مثُلك أسأل كلما رأيتُ عاجزًا أو مريضًا أو فاقدًا لنعمة ما، عن لون الحياة في عينه.

وتعجبت من ابتسامته إذ يبتسم، ورضاه عن حاله إذا شكر ربه، وتفاؤله كلما ظهرت حماسته.

مثُلك أنا يغلبني الظن أنني مركز الحياة، وأن مقاييس السعادة والمتعة التي أحددها من خلال التجربة والواقع هي حدود المسألة، وأنها مقاييس العالم المثالية، وأن الجميع يرى ويقرر ويحدد مثلي تمامًا.

مثلك أنا... ومثلي ومثلك الناس.

في دراسة قام بها علماء النفس في الثمانينيات لقياس مستوى السعادة لدى البشر، قاموا بإعطاء مجموعة كبيرة من المتطوعين جهاز «بيجر»، وطالبوهم بأنه حين يرنّ الجهاز فعلى كل واحد منهم أن يتوقف فورًا ويجيب عن سؤالين: الأول هو «على مقياس واحد من عشرة ما مستوى سعادتك الآن؟»، والآخر هو «ما الذي يحدث حولك الآن، أو تقوم بفعله؟».

جرى هذا الاستبيان على فترة غير قصيرة وشارك فيه المئات بتنوعهم، وكانت الإجابات مثيرة للعجب!

ذلك أن غالب المشاركين كانوا يكتبون في درجة السعادة رقمًا لطالما تكرر

وهو (سبعة) مهما تغيرت الأشياء التي يفعلونها، والأحداث التي تدور حولهم!

بلا شك كانت الدرجة ترتفع لتصل إلى «تسعة» أو حتى «عشرة» حينما يحقق الشخص إنجازًا يُسعده، وقد تهبط إلى «اثنين» أو«خمسة» عندما تمر به كبوة أو فاجعة، لكنها بعدة فترة تعود لتستقر عند الرقم «سبعة»، اللهم إلا في حالات نادرة كفقدان طفل مثلًا، أو فاجعة مزلزلة.

كانت الدلالات التي يعطينا إياها هذا البحث تعني عدة أشياء مهمة:

أولًا، أنْ لا أحد سعيدًا أو شقيًّا طوال الوقت، عامل النظافة كأستاذ الجامعة تتأرجح درجات هنائهم بشكل متشابه، وتتلون مشاعرهم وأحاسيسهم على مدار الأيام.

ثانيًا، أن الناس وبعيدًا عن ظروفهم الخارجية، في الغالب يعيشون ضمن حالة ثابتة من السعادة المقبولة بيد أنها غير مُرضية تمامًا، أو بمعنى آخر يمكن دائمًا أن تكون أفضل.

وهو ما فسَّره عالم النفس بجامعة هارفارد دانييل غيلبرت، بأنه يشبه جهاز المناعة النفسي، ذلك أنه بغضّ النظر عما يحدث لنا، فإن مشاعرنا وانفعالاتنا

وذكرياتنا ومعتقداتنا تتأقلم وتُعدّل نفسها بحيث تحافظ على مستوى لسعادتنا، وإن لم يكن كاملًا.

ثالثًا، وهو ما ذهب إليه الكاتب مارك مانسون في كتابه «خراب»، من أن الحياة ليست أكثر من قفزات صغيرة إلى أعلى وإلى الأسفل، غير أن درجة الراحة رقم «سبعة» التي نحاول الاستقرار عليها، دائمًا ما تخدعنا بحيل صغيرة لكنها مزعجة وهي أن دماغنا يقول لنا: «إذا تمكنتُ من الحصول على المزيد، على مقدار صغير أكثر، فسوف أصل إلى المستوى عشرة آخر الأمر، وسوف أظل عنده».

والنتيجة أننا نُطارِد العشرة كل يوم، فتظن أنك ستصل إلى السعادة الكاملة عندما تشتري بيتًا بعينه، فتشتريه وتصل إلى درجة «عشرة» غير أنك تعود ثانية ـ سواء طال الوقت أم قصر ـ إلى مرتبة «سبعة» وتعود الحيلة لتفرض نفسها على ذهنك الذي يستجيب ويرى أن السيارة التي لطالما حلمت بها هي آخر الأمر، وتحصل عليها وترتفع درجة سعادتك لفترة، ثم تعود لتنشئ حلمًا جديدًا.

في كل مرة أنت تطارد رقم «عشرة» لكنك لا تنتبه أنك إنْ وصلت إليه فستستمتع قبل أن تعود لمرتبة «سبعة»، وإذا لم توفَّق فربما تهبط إلى رقم «ثلاثة» قبل أن تعود مرة أخرى إلى رقم «سبعة»!

تلك التي يسميها أهل التخصص «الحلقة المفرغة من البهجة» والتي ندور فيها مطاردِين الرقم «عشرة»، قبل أن نستقر غالب حياتنا في المنطقة «سبعة»!

رابعًا، ما دامت الإجابات تؤكد أن السعادة المطلقة الدائمة أمر لا ينبغي التفاني من أجل الوصول إليه، والتعاسة القائمة الأبدية أمر غير وارد، فيجب إذن إعادة النظر إلى محاولات «تسليع السعادة» التي يتم القيام بها، ومحاصرتنا بنتائجها!

فحسبما أكدت مجلة «الشخصية وعلم النفس الاجتماعي» في عددها الثامن لعام 1978 في طيات مقال بعنوان «الفائزون باليانصيب والضحايا العَرضيون، هل السعادة أمر نسبي؟» أن «من يربحون الملايين من اليانصيب ويصبحون أثرياء فجأة يرجعون بعد فترة إلى نفس شعورهم النفسي قبل الفوز بالجائزة، كذلك فإن من يصابون بالشلل مثلًا من أثر الحوادث لا يصبحون أدنى في درجة سعادتهم على المدى البعيد، المدهش أن حالتهم النفسية وإحساسهم بالسعادة يصل إلى نفس الدرجة التي كانوا عليها قبل الحادث!».

هذه هي الحقيقة المجردة إذن، أنْ لا شيء خارجي، مبهجًا كان أو تعيسًا، قادر على أن يهبنا السعادة المطلقة، أو حتى يُفرغ حياتنا من الهناء!

فلماذا نصدق إذن أن هناك وجبات من السعادة تَعِدنا بالمكوث في القمة

وتُطمئننا إلى الابتعاد عن الانحدار في مصفوفة السعادة تلك؟ لماذا نصدق أن «شيئًا ما» سيجعلنا نصل إلى منتهى مطالبنا؟!

أنا أعلم أن البعض صار أكثر حساسية حينما يتم طرح شاهد ديني يؤكد المعنى، وعليه فلن أطيل في تأكيد أن الفلسفات الدينية ـ بل الروحية كذلك ـ حسمت ما نقوله منذ زمن، وأن النبي محمد ﷺ كان واضحًا وهو يؤكد أن لو كان لابن آدم وادٍ من ذهب لاشتهى ثانيًا، وثالثًا، وأنْ لا شيء يملأ عينه مهما كان.

«مطاردة السعادة» فخٌّ تصنعه أذهاننا، وتتم إعادة تصنيعه في كل مكان.

أوسكار وايلد كان عبقريًّا حينما أكد أن السعادة الحقيقية تأتي حين لا تبحث عنها، ذلك أن السعادة تكره من يُقلق أمنها بالأسئلة السخيفة التي تشكِّك فيها، بل ذهب إلى مصارحة الناس بالحقيقة المُرة وهي أن هناك مصيبتين يمكن أن تحدثا لك في الحياة...

الأولى ألا تحصل على ما تريد، والأخرى أن تحصل عليه! لأنك ستدرك حينها أن ما توهمْتَه لم يكن صحيحًا، وأن هناك «شيئًا جديدًا» قد تم خلقه في ذهنك وتصنيفه على أنه «شيء جالب للسعادة»!

حتى الوجع، شيء محتوم علينا، والمعاناة أمر سيحدث يقينًا، ومهما كانت الكارثة كبيرة فإن جهازنا النفسي قادر على استيعاب الصدمة وإعادة الأمور إلى مستوى مُرضٍ من السعادة.

وضوح هذه الدلالات يدفعنا إلى بعض التأمل الشخصي، ومحاولة مقاومة تيار السعادة المادية، وعلى الجانب الآخر يجعلنا متفهمين لفلسفة المعاناة، وأنه ما دمنا سنعاني يقينًا فعلينا على الأقل أن نقوم بشيئين في غاية الأهمية:

الأول، أن نُعاني بحكمة! النبي محمد ﷺ له هنا مقولة مهمة، ذلك أنه وبعدما أكد أن الابتلاء لا يعني دائمًا غضب الله، نصح أتباعه نصيحة قد تبدو دينية لكنها نفس ما ينصح به علم النفس وهي أن «مَن رضي فله الرضا، ومَن سخط فله السخط»، حيث فهمُ الابتلاء هو الذي يخفف وطأته أو يثقلها، وتقبُّل المصيبة الواقعة أو رفضها هما مربط الفرس في تعاملك معها، بل في مستوى سعادتك.

الشيء الآخر بعد المعاناة بحكمة، هو أن نجتهد لجعل معاناتنا ذات قيمة، أو بمعنى آخر أن نألم للأشياء التي تستحق الألم.

وجع المقارنات، وألم عدم الحصول على شيء ما أو الوصول لمكانة ما أو فعل شيء ما،هي أشياء تحتاج إلى إعادة نظر وتأمل منك.

وأنت بحاجة إلى طرح سؤالين هنا تحسم بهما الأمر:

- هل ما أظن أنه سيجلب السعادة سيجلبها حقًّا؟ وهنا يمكنك الاستعانة بتجاربك الماضية في الإجابة عن هذا السؤال؛ كم عدد الأشياء التي تمنيتها وحققتها وكان في يقينك وقتها أنها جالبة للسعادة الأبدية ثم فقدت جزءًا من أو كلَّ قيمتها مع الزمن؟
- هل ما يسبِّب لي التعاسة فعلًا يستحق ذلك؟ يمكنك أيضًا الاستعانة بتاريخك، فلربما أجابك بأن ما أنت فيه كان حتى وقت قريب غاية المُنى، وأن إحباطاتك الحالية ظهرت مؤخرًا، فما الذي يضمن أنَّ تخلُّصك منها سيبدِّد التعاسة، ولا مانع من تأمل أحوال الناس من حولك، فكثيرًا ما كانت مصائب بعض الناس سلوى للبعض الآخر.

وقد يحدث أن يدرك الواحد منّا حجم مأساته الحقيقي حينما يقارنها بمأساة الآخرين.

مكتبة
t.me/t_pdf

عزيزي المستهلك

«السلوك يعكس بطريقة خفية دوافعنا الداخلية، وهو يتكون نتيجة الصراع الداخلي بين دوافع اللاوعي الأقوى تأثيرًا، والرغبات والحاجات، وغالب الناس غير مدركين للدوافع التي تقودهم، لكنْ في النهاية يقودهم سلوكهم لمزيد من المتعة أو قليل من الألم».

هكذا صرّح فرويد وهو يطرح أفكاره وأبحاثه للناس، دون أن يدرك أن كلامًا كهذا يمكن أن يكون بداية لعصر جديد في مجال التسويق، لأن مثل هذه الفرضيات التي طرحها وقتذاك كانت تعني فرضية أخرى أخطر، وهي أننا أشخاص عاطفيون لأقصى حد، عاطفيون لدرجة الهشاشة، لدرجة أنه يسهل

التلاعب بنا تمامًا، ومن مدخل واحد ومهم يسمى «المشاعر» لاسيما المتجذرة فينا والطامحة إلى مزيد من اللذة وقليل من الألم.

وفي الوقت الذي كانت أبحاث فرويد تصنع دوائر من النقاش في المجتمعات والمجلات العلمية في أوروبا لا سيما النمسا، كان إدوارد برنايز، خبير التسويق الناجح والشاب الطموح، يُنهي اجتماعه مع رئيس الشركة الأمريكية للتبغ، والذي بثَّ له حجم الإخفاق في شركات التبغ لأن نصف السكان ـ يعني النساء ـ لا يدخن، مشددًا على أن المجتمع ـ نحن هنا في عام 1928 ـ يتخذ موقفًا ثقافيًا مضادًا لهذا السلوك، ويحكم بقسوة على المرأة التي تشعل سيجارة.

وكان هذا الاجتماع تحديدًا هو بداية لأمور عِظام، وكان له ما بعده...

حيث إن إدوارد برنايز كان يحمل توجهًا تسويقيًا مناهضًا لما هو قائم، فعلم التسويق كان قائمًا خلال العقود السابقة على محاولة إقناع العميل، أنت لست بحاجة لأكثر من أن تُعلِم المستهلك ما الذي يجعل منتجك مميزًا، فتخبره عن نوع الخامات المصنَّعة، وآلية التصنيع، وكل ما هو مميز في المنتج الذي بين يديك، متكئًا على أن الناس ـ وهذا ما يظهر لأي مدقِّق ـ يختارون وفقًا لقيم عقلية مباشرة.

برنايز كان يرى أن كل هذا كلام فارغ! وأن الناس عاطفيون وانفعاليون

مهما حاولوا إثبات العكس، وأن تبريراتهم العقلانية تكون لاحقة لقرارهم العاطفي، وأنك ببساطة إذا ما استطعت أن تحرِّك مشاعرهم وتوجه عواطفهم نحو منتج ما فقد استطعت أن تصل إلى نتيجة لا يصل إليها أي كلام ومنطق مهما كانت حكمته.

وعليه، رأى الرجل أن حملته التي سيبيع بها السجائر للنساء ستقوم على وجهة نظر واضحة: «إذا أردنا أن تدخن النساء فلا منطق سيفعل هذا، ما سينجح ببساطة أن نخاطب عواطفهن وقيمهن، الهوية الأنثوية هي التي ستحقق لنا ما نريد».

وفي استعراض عام أُقيم في مدينة نيويورك، وفي أثناء الاحتفالات، توقفت بعض النسوة اللواتي تم انتقاؤهن بدقة في لحظة ما، وبحركة استعراضية مصمَّمة باحترافية أشعلن السجائر في الوقت الذي كانت كاميرات المصورين، سواء الموجودين في الاحتفال أو الذين استأجرهم برنايز، تلتقط صور الجميلات وهنَّ يدخنَّ باستمتاع وبهجة... وتحدٍّ.

وفي اليوم التالي ظهرت الصور تلك في كبرى الصحف الأمريكية وفوقها تعليق بأن هؤلاء النساء لم يشعلن السجائر فحسب، بل أشعلن مشاعل الحرية، معلنات قدرتهن على التحدي، والاستقلال، وتقرير المصير!

أهم ما فعله الرجل هنا أنه وبطريقة ما ـ وهي غير أخلاقية بالمناسبة ـ جعل المادة التحريرية جزءًا من المادة التسويقية، المقالات وأعمدة الرأي كانت تتحدث عن هذا الحدث... لقد تم تقديم سيدة تشعل سيجارة على أنه ميلاد لِقيمة جديدة.

لعب برنايز على الشعور السائد وقتذاك لدى النسوة، مستثمرًا حالة النشوة التي تملَّكتهن بعد الإقرار بحقهن في التصويت قبل سنوات قليلة، وأنهن الآن في مرحلة اكتشاف أنفسهن، كانت المرأة الأمريكية في ذلك الوقت قد اشتبكت مع سوق العمل، وارتدت الجينز، وتتحمس للدخول في كل معركة تحمل لافتات المساواة وعدم التمييز.

حسنًا، فلتصبح السيجارة إذن جزءًا من هذه المعادلة...

السيجارة تمرُّد... التدخين استقلالية... التبغ للنساء كما هو للرجال...

يعلق الكاتب الأمريكي مارك مانسون على ما حدث بعد هذه الحملة ساخرًا من أنها نجحت نجاحًا جالبًا للمساواة فعلًا بين الرجال والنساء، ولكن في نِسب الإصابة بسرطان الرئة!

لافتًا إلى أنه وخلال عقود العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات تم توجيه

ضربات ثقافية إلى المجتمع عن طريقة استراتيجية برنايز، حتى إنه اُخترع ميدان العلاقات العامة ضمن سياق هذه العملية!

ببساطة برنايز هو أول مَن اخترع فكرة وجود نجم شهير في إعلان.

وجود مواد تحريرية سواء مقالات أو تحقيقات تعطي معلومات ما عن منتجك، فكرتُه كذلك...

صُنع بروباجندا تخدم منتجك ـ أو عميلك ـ وإقامة نقاش عام حوله، هو من أفكار هذا الرجل...

باختصار ما يحدث لنا اليوم قد وضع لبنته الأولى برنايز الذي كان يعرف سيجموند فرويد جيدًا، ويؤمن ـ ربما أكثر من علماء كثر ـ بأهمية وخطورة ما يقوله.

دعْكَ من أنه كان ابن أخته!

نعم، برنايز هو الرجل الذي رأى أن أبحاث خاله النفسية تستحق أن يتم التعامل معها بشكل أكثر أهمية، بشكل يجلب المال والثراء، وفي الوقت الذي كانت فيه مقالات فرويد تدور حولها النقاشات العلمية، كان برنايز يسجل في دفتر أعماله أسرار النفس الإنسانية التي يخبر بها خالُه العالم، والتي يأتي على

رأسها أنه إذا استطعت الاستعانة بمخاوف الناس وإحساسهم بقلة الأمان، فسوف يشترون أي شيء تقول لهم أنْ يشتروه!

ابحث عن الوجع أو اصنعه... هناك ألم ونحن سننجيك منه...

هذه هي التعويذة الكلاسيكية الأولى، بِعْ منتجك من منطلق انتشال العميل من دائرة ألمه الشخصية، تلك الدائرة التي يجب عليك صنعها بشكل خفي في الإعلان، يمكنك أن تبيع مكيفات هواء اعتمادًا على قوة تصنيعها وجودتها، لكنك ستضاعف البيع لو خاطبت وجع العميل من تحمل شدة الحر والتوتر الذي قد يسبِّبه ذلك، لا مانع من أن تؤكد له أنه أكثر توفيرًا للكهرباء، ذكِّره أنك ستجعل مأزق «الفاتورة» أقل ألمًا.

وهذا المجمع السكني أكثر أمانًا، لدينا بوابات تمنع دخول المتطفلين، أنت هنا تخاطب الخوف من الآخر.

يمكننا كذلك أن نؤكد له أن وجوده معنا سينقله إلى مجتمع أرقى.

اضغط بشدة على نقطة الضعف هذه، فلربما يشعر بالخجل من وضعه الحالي ويبدأ في دفع قسطه الأول!

بألوان جذابة، ووجوه محبوبة، وصورة لا تشوبها شائبة، وأغانٍ هي ترجمة

لرسالة الشركة الإعلانية يتم إلقاء الشِّبَاك علينا، كل إعلان من هذه الإعلانات يُشعرنا بنقصٍ ما، بشعور سلبي يطالنا حتى وإن كان موضوعًا في إطار مدهش لطيف، ويتقافز في بهجة على نغماته نجم محبوب!

أعلم أن «التسويق» صار علمًا لا أستطيع تصنيفه على أنه «شرٌّ محض» غير أن آلاف الرسائل التي تصل إلينا من خلال حملات التسويق والدعاية المصاحبة لها أظن أنها قد غيَّرت كثيرًا في نفوسنا، ولعبت على مشاعر الخوف والضآلة، بل صنعت تناقضات داخلنا لا حصر لها.

حينما كنت طفلًا كان جهاز التلفاز بالنسبة إليَّ يعني مواعيد معينة للبهجة.

اثنتا عشر دقيقة من أفلام الرسوم المتحركة أنتظرها يوميًّا بعد أذان المغرب على إحدى القناتين المتاحتين، وكان لهذا الموعد أثر السحر في نفوس جيل بأكمله، وعندما افتتح أحد العائدين من العمل بالخارج دكانًا متواضعًا لألعاب الفيديو شعرت وكل أبناء بلدتي أن منتهى المتعة تسكن على أطراف البلدة!

حينها كنا نسمح لخيالنا بالتفكير في ما سيصبح عليه شكل العالم بعد ربع قرن، ومع التطور الذي شهدناه وقتذاك، كنا نتخيل سيارات تمشي بالماء، ومستعمرات على المريخ، وقطارات تسير بسرعة الضوء...

وعندما كبرنا، ما الذي حدث...؟!

أصبح لدى الواحد منّا ألف قناة متاحة يقلّب بينها وهو يحمل سأم الدنيا بأكملها، وتطبيقات عليها أرشيف السينما العالمية كله نتجول بينها في ملل دون أن نشاهد منها شيئًا، وجهاز ألعاب في المنزل تعلوه شاشة تحتل نصف الجدار ونحن أمامها في حالة بلادة وفتور...

مرَّ ربع القرن الذي كنّا نتخيله ولم يحدث التطور الذي ذهبت إليه عقولنا، السيارة ما زالت تدور بالبترول لكنها مجهَّزة بشاشات ومكيفات هواء وتطبيق لتحديد المواقع.

لم يصبح لأيٍّ منا سكن على المريخ لكننا جميعًا لدينا حسابات على «فيسبوك»، و«تويتر»، و«إنستجرام»!

حتى استدعاء الماضي أو «النوستالجيا» التي تعني حنين البعض للزمن الفائت الجميل، ستجد أن الحنين ليس حنينًا لتواضع الماضي وبساطته، ومهما ادَّعينا بأنه موجَّه إلى الحياة المُبهجة الرائقة فإنه في حقيقته موجَّه إلى معانٍ جوهرية، ردمتها أكوام الرفاهية وقتلتها.

نشتاق لضحكة صافية لأن غالب ضحكنا اليوم مشروخ به عِلَّة.

نشتاق إلى التواصل الاجتماعي والدفء واللذين تم استبدال مجموعات العائلة على «واتساب» بهما!

لقد زادت الأشياء وقلّت المعاني!

لقد تطوَّر كل شيء حولنا في اتجاه رفاهية الفرد، ومسطرة برنايز التي صنعها بمفردات وقوانين ورؤى خاله فرويد ما زالت هي الأداة التي يتم بها مد الخطوط، دون أن ندري ـ ولعل برنايز كان يدري ـ أن مزيدًا من الرفاهية يعني المزيد من البريق، والمزيد من مظاهر القوة، والكثير من الخواء والهشاشة!

هشاشة نفسية تجعل فكرة استسلامك لأي معايير غالبة أو طاغية، كبيرة.

لا تنسَ أن برنايز لم يكن مهتمًا بتوزيع «ماكينات طباعة» أو «أدوات طبية»، لقد كان الرجل ومن يومه الأول يبيع أدوات التجميل والسجائر والمشروبات الغازية، لقد بدا كأنه يقول لنا: يمكنني أن أبيع «الضرر»، بل يمكنني أن أجعله طموحًا ومطلبًا لدى الجمهور! وهذه نقطة مهمة وليست هامشية؛ أننا بالنسبة إليه مجرد جمهور، عملاء، إنسانيتنا ومشاعرنا بالنسبة إليه عملية حسابية يبني عليها خطته!

المدهش ـ والمخيف كذلك ـ أنك حينما تقرأ عن برنايز ستكتشف أن من معجبيه جوبلز وزير دعاية هتلر، ومن زبائنه سياسيون ورؤساء جمهوريات، حتى إنه عمل مع إدارة الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون خلال الحرب العالمية الأولى بالتعاون مع لجنة الإعلام الأمني، ويقال إنه كان هو المروج

الرئيسي للفكرة القائلة إن حروب أمريكا وجهودها كانت بغرض «إدخال الديمقراطية إلى جميع أنحاء أوروبا»!

كان برنايز ـ الذي تتحكم نظرياته في حياتنا الآن ـ يؤمن بأفكار سياسية مطابقة لأفكاره التسويقية، فكان يرى أن البشر في المجمل خطرون بشكل لا يمكن تصوره، وأن الدولة بحاجة إلى ضبطهم جيدًا، ليس بالحديد والنار، ولكن بطريقة أقل كُلفة...

لقد آمن بأن التسويق وسيلة رائعة للحكومات كي تؤثر على مواطنيها وتتلاعب بهم دون حاجة إلى الصدام!

نفس فكرته التجارية: علينا أن ننحّي عقولهم جانبًا ونخاطب مشاعرهم، احتياجاتهم، مخاوفهم... فقط.

بلا شك برنايز وخلفاؤه من بعده لا يحملون عصا الشيطان ولا يعترفون بأنهم يفعلون فينا شيئًا كبيرًا.

سلْ أيَّ واحد منهم وستجد إجابته حاضرة: «إن عملنا في حقيقته ليس أكثر من(إرضاء العميل)، وبيعُ منتجٍ ما لن يُكتب له النجاح ما لم يكن هناك عملاء يطلبونه».

وهذا حقيقي، الناس يطلبون كل هذا، وتلك حيلة أخرى عرفها برنايز من كتب ملهمه فرويد؛ أن الناس يطلبون ما يشتهون ويتمنون لا ما يحتاجون إليه.

الناس يريدون الإعجاب، يريدون الرفاهية، يريدون المزيد من كل شيء، لكنهم لا يحتاجون إلى كل هذا إن غُصنا إلى الأعماق.

إنهم بحاجة إلى أن يتواصلوا مع أنفسهم، بحاجة إلى أمان حقيقي، طمأنينة صادقة، لكنهم - وإنْ شعروا بهذا الاحتياج - يُضطرون إلى شرائه بذات العملة القائمة، وهنا نفهم أن دور «أهل التسويق» لم يبدأ من لحظة شعورنا بما نريد، وإنما بفهم الاحتياجات الإنسانية، ومن ثم تحويلها إلى «أشياء» ثم إقناعنا بأن هذه الأشياء تعني مزيدًا من الراحة والطمأنينة، ثم يتركوننا نلهث في سبيل الحصول عليها!

أنت مستهدَف يا صاحبي طوال الوقت، وفي سبيل الحصول على ما في جيبك بإرادتك، يجب أولًا إفراغ ما في روحك، وما يجعلك غير مدرك لما يحدث لك؛ أن توقيت سرقتك ببساطة يحدث قبل اللحظة التي تتوقعها أنت، ليس في لحظة رؤيتك للإعلان، أو استماعك إلى الزعيم الملهم، أو وقوفك في طابور العملاء...

سرقتك تبدأ منذ تم تغيير شفرة مشاعرك، منذ تم إشعارك بالخوف فهرعت لتطمئن روحك، أو تم توجيه سعادتك إلى أشياء بعينها على أنها سبيلك لهناء أبديٍّ.

والحل...؟!

الحرية... أن تكون حرًّا هو الحل، هو أصعب حل يمكن أن تقوم به، لكن لا حلَّ غيره!

أن تملك الحرية للتخلي عن كل شيء تشعر بأنه يقيِّد إرادتك، أن تكون حرًّا لرفض كل ما يَثبت لك أنه - ورغم إجماع الأغلبية عليه - ليس من ورائه طائل، حتى لو بالنسبة لك على الأقل.

بالمناسبة، إنهم يعرفون أن هذا هو الحل الوحيد للخروج من براثنهم، ولذلك يبيعون لنا نوعًا مزيفًا من «الحرية» حيث يضعوننا طوال الوقت في دوامة من الاختيارات؛ لو أحببت أن تشتري حذاءً أو فرشاة أسنان فستجد أن هناك مساحة كبيرة لتمارس فيها حريتك، الخيارات كثيرة أمامك دائمًا فتشعر بأنك حرٌّ ولا أحد يضيِّق سُبلك.

أوضح مثال لهذا النوع هو ما تراه في أي انتخابات تجري حولك في عالمنا

العربي؛ ستجد أن الناخب يظن نفسه حرًّا، وأن خلف الستار سيختار من يريد، والحقيقة أنه ـ وبعد حملات من التوجيه ـ يجد نفسه واقفًا ليختار بين مَن يريدون له أن يختار بينهما!

ببساطة هذه ليست حرية، هذا شيء يشبهها!

الحرية موقف، موقف شخصي، قرار إيمانٍ أو كفرٍ تم اتخاذه على مهل...

الحر يملك قوة الرفض، قوة التضحية بما تم رفضه، وتحمُّل تبعات موقفه هذا...

الحر قادر ببساطة شديدة على تحمل ألم الفطام وإعتاق روحه من أي رِقٍّ...

والحر يعرف جيدًا أن حريته رهينة بالتزامه، لذا فإنه وإذ يقرر يفعل ما يجب عليه فعله.

ليس أسوأ على المرء من أن ينظر إلى نفسه وهو يترنح منكسرًا وقد أخفى ذيله بين قدميه عائدًا إلى سيده القاسي القديم، واضعًا رأسه بكلِّيتها في شاشة هاتفه ليحسب عدد المعجبين على صورته، بعدما كان يود حساب الدقائق التي سيقضيها في رياضة ما! أو ينظر إلى عشرات الإعلانات اليومية في حسرة كاذبة.

ليس هناك مرارة توازي مرارة المقارنات، ودخول مسابقة «أرني من أنت؟!» التي يطلقونها فينا وحولنا!

الحرية الحقيقية هي الحل، حرية لا تؤمن بالمزيد الدائم، وإنما بالتمهل والاستمتاع بما هو قائم...

الحرية الحقيقية هي التي تستطيع أن تجيب فيها عن سؤال «كم يكفيك كي تكون سعيدًا؟!» بدلًا من حرية «قفزة إضافية واحدة ستجعلني سعيدًا».

الحرية الحقيقية هي حرية التمهل، وعليه فإنها ضد الإدمان، وهي لا تفرز شخصًا نهمًا ضائعًا يتلفت كجائع وأثرُ التخمة بادٍ عليه.

الحرية الحقيقية لن تدفعك إلى التعامل مع الحياة بمبدأ البحث عن «فرصة كل يوم» وربط نجاحك وفشك، سعادتك وشقائك، بنَيْل هذا الأمر أو ذاك.

حريتك ستعدل موازين النصر والهزيمة لديك، وتجعل انتصارك الحقيقي هو انتصارك على نفسك، وتهذيب نوازع مراهقتها وطيشها.

الحرية الحقيقية لا تعني إثبات أي شيء لأي شخص، لأنها ستعلِّمك ببساطة أنك يجب ألا تهتم إلا بما تهتم حقًّا به، وكل سعيك وتفكيرك يجب أن يوجَّه إلى معركة شخصية تديرها لحسابك، معركة تحقيق ذاتك الحقيقية وإشعارها بالهدوء والأمان.

الحرية الحقيقية يا صاحبي ليست في قدرتك على الاختيار الأمثل بين خيارات كثيرة متنوعة لهدف لا يعني لك شيئًا، وإنما في قدرتك على وضع خطوط لحياتك بها من ألم الانضباط ووجع الالتزام الشيء الكثير، هذا «الألم» هو طريقك إلى حريتك وراحتك وسعادتك.

وبالمناسبة، الحرية الحقيقية غايتها أن تعطيك سعادة حقيقية، وأن تجعل ألمك مفهومًا ومحتمَلًا، إنها لا تَعِدك بالسعادة الأبدية الكاملة، أو حتى غير المنقوصة، لكنها ستعطيك شعورًا أهم من كل هذا؛ شعور أنك إنسان، غير قابل للتنميط، ستجعل لوجعك معنى، وستوفر لك أوقاتًا لفهم نفسك، ضجيجُ الحياة لن يكون مهربًا مناسبًا لك حين تكون حرًّا، الحر لا يتعاطى المخدرات!

مخدرات المسرَّات الكثيرة، مخدرات الضجيج العالي، مخدرات الهروب من تحمل المسؤولية...

الحرية أن تكون أنت بلا رتوش، سعيدًا حقًّا أو حزينًا حقًّا، تريد فعلًا أو لا تريد البتّة، ستخطئ، وتحزن، وتألم، وتتعلم، وتفرح، وتسعد، وتفوز، وتنتصر...

أنت مَن سيفعل كل هذا... لأنك تريده...

والأهم... تشعر به!

مكتبة
t.me/t_pdf

أبناء الفرصة الثانية

أذنب نبي الله سليمان ذنبًا فدعا ربه مستغفرًا: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾.

وسليمان عليه السلام له صفات ذكرها ربنا في كتابه، أهمها العلم، وأنه أوتي من كل شيء، واطَّلع على منطق جميع المخلوقات، مما زاد من حكمته، ووعيه وفهمه للحياة.

هذا النبي الحكيم عندما أذنب ذات يوم دعا ربه بالدعاء الذي بدأنا به حديثنا، فهل لفت نظرك يا صاحبي شيء في دعاء سليمان ربَّه؟

لقد اعتذر عن خطئه كما رأينا، غير أنه لم يوقف حياته عند زلَّته، وأكمل تضرعه بطلب يعينه على تحقيق مراده، والأشد دهشة أنه لم يختم كلامه -

وهو يستغفر ـ بقول «إنك أنت الغفور» أو «إنك أنت الرحيم» وإنما قال «الوهاب».

ألا يدفعك هذا لطرح سؤال ما؟!

سؤال عن طبيعة هذا النبي الذي فهم الحياة فهمًا دفعه لأن يعرف ما يجب عليه فعله.

وما يجب فعله ألا نوقف حياتنا عند زلَّة، أو فشل، أو ذنب، أو تقصير ما.

حقيقةً، إن النبي الحكيم وبعدما استغفر ربه، واعتذر عن خطئه، وراجع حساباته، قرر أن يوجِّه كامل طاقته إلى ما يريد فعله ويتمناه، وقوله «إنك أنت الوهاب» وليس الغفور أو الرحيم، معناه أن نبينا سليمان قد تجاوز الماضي بكلِّيته.

إنه مزيج بين حُسن الظن في ربه الذي يغفر إذ دُعي، وبين إيمانه بأن إلهه قد خلقه لشيء ما يجب عليه فعله، ولا ينبغي أن يوقفه عن الوصول إليه مانع، حتى وإن كان ذنبًا أو سقطة صغيرة كانت أو كبيرة.

إنها فلسفة الفرصة الثانية التي لم يهتم أحد بتعليمنا إياها، إذ انشغلوا بحبسنا في قمقم خطايانا السابقة.

يُحكى أن رجلًا خفيف الظل كان يحب النبي ويأنس به النبي لجمال روحه وظُرف لسانه، غير أن هذا الرجل كان مبتلى بداء السُّكر، وكثيرًا ما كان يؤتى للنبي في حال مزرية بسبب ضعفه أمام هذا الأمر، فكان النبي ينصحه، ويعنِّفه، ويعاقبه، غير أنه لم يسمح يومًا لأحد أصحابه حين تندَّر على نقطة ضعف الرجل وقام بازدرائه قائلًا: «اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتَى به» أي يؤتَى به وقد أذهبت الخمر عقله.

هنا وقف النبي مدافعًا عن الضعف الإنساني كله، وقف ليضع خطوطًا فاصلة بين فكرة كراهية الشيء الخاطئ وكراهية المخطئ، قال كلمة مهمة وعظيمة وذات دلالة: «لا تَلْعَنُوهُ، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم»، وهنا يتبدى لنا موقف النبي ﷺ من فكرة زَلَل الإنسان وضعفه أمام شهوة ما، إنه يفصل جيدًا بين فكرة كونك شخصًا مخطئًا قد نحزن عليك، أو نغضب منك، أو نُحبط لسلوكك المؤذي لنفسك ومَن حولك، وقد نضع القوانين التي تعاقبك حال تكرار خطأ مُضرٍّ لك وللآخرين، غير أن كل هذا لا ينفي فكرة كونك إنسانًا قد تحمل بقلبك حبًّا كبيرًا، وخيرًا عظيمًا.

قد تكون في أتون معركتك، منشغلًا بصراعك بين السامي والخسيس

بداخلك، تناضل وتكافح وتعاني، متألمًا من ثلمة ما في شخصيتك، أو شهوة ما تُضعفك، تحسب ـ بوجع ـ المسافة بين ما أنت فيه وما تؤمن بأنك قد خُلقت من أجله...

والأشد مرارة أن تجد نفسك مدانًا في أعين بشر يهوون تتبُّع الزلات، ويعمون عن رؤية أي نور، فيجعلون بينك وبين أرض التوبة أمدًا بعيدًا.

يعظِّمون خطاياك حتى تظن نفسك شيطانًا كُتبت عليه اللعنة، ويسفِّهون من أي مساحات للخير فيك، ولطالما وقع بعضنا في بئر الشر لأن يد الخير المتسامية دفعته بداخلها!

«لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم» قالها النبي ﷺ فحفظناها غير أننا لم نفهمها.

بلى، نحن لم نفهم بعدُ كيف يمكن أن نُعين الشيطان في وأد الخير في نفوس بعضنا ونحن نظن أننا نفعل الخير، نبيع للناس الجحيم ونحن نستغفر الله!

نخنق أرواحهم التي أخطأت بحجة السمو والطهارة.

الأشقياء وعتيدو الإجرام لم يصبحوا هكذا بين عشية وضحاها.

الأرحام لا تحمل نُطفًا نبيلة وأخرى خبيثة.

ثمة أناس وظروف ومواقف غذَّت مع الوقت الشر بداخلهم، وقتلت فيهم نوازع الخير والرحمة.

للأسف الإنسان ليس أمينًا على الإنسانية.

ولا عجب يساوي عجبك مِن قاتل مقتول، وظالم مظلوم، وصاحب خطيئة يُشرف بدأب على تنظيم صفوف العصاة قبل أن يلقيهم في الجحيم!

أزمة المنكسر المهزوم مريرة، والمآزق النفسية التي تحيط به كثيرة ومتشابكة، قد يقع في مأزق ازدراء الذات وفقد الثقة بها، ومن ثمَّ عدم الرضا المستمر.

وقد يلوم البشر والحجر ودوران الأيام وتدابير القدر.

قد يعادي مجتمعًا لم يرحمه، أو يقسو على إنسانية رأى منها الوجع، وربما وجد في الانتقام من نفسه وممن حوله حلًّا لمأساته، وقد يُنهي حياته إن زادت حدة الصراع بعقله.

وهنا يطلُّ بتعاليمه النبي محمد ﷺ مرة أخرى، إذ نوّه الرجلُ الحكيم إلى أن من عبادات الإنسان على سطح الأرض عبادة «الكلمة الطيبة»، وعدَّها من جُملة الصدقات التي قد تُدخل المرء الجنة.

والكلمة الطيبة التي قد تُدخل الجنة في يقيني هي شيء أكبر من عذوبة في

اللسان، إنها الكلمة إذ تحيي نفوسًا، وتوقظ أملًا، وتيسِّر صعبًا، وتهوِّن على خلق الله ما يلاقونه في حياتهم...

كلمة المرء منّا حين يدخل بيتًا فيزيِّنه في عيون أصحابه، ويرى حسنًا فيقف عنده ويشيد به، ويؤلمه العوج والقبح فيعمد إلى إسداء النصيحة التي من شأنها الإصلاح لا التشهير وتسجيل المواقف...

نعم، هي الكلمة التي تَمَنَّينا سماعها حين سقطنا وسمعنا عوضًا عنها كلمات الشماتة والتشفي، وانتظرناها حين بدأنا برسم أمانينا فصدمتنا عبارات الإحباط وتثبيط الهمة، وحلمنا بها حين عبَّرنا عن مشاعرنا ومخاوفنا بصدق وجدِّية وكانت بديلتها عبارات التخويف ونصائح التعقل والدوران في الفلك القائم الذي لا نرضى عنه.

نحن ببساطة يا صديقي لدينا أزمة تفشي وباء الإحباط، والذي يقدر بعنفوانه على عرقلة الناجحين وتسفيه أمانيهم، فما بالك بما يمكن أن يفعله في نفوس منكسرة موجوعة!

وعليه، فإن نصيحتي لك أن تفهم ما يتواطأ الجميع على عدم إفهامنا إيَّاه، وهو أن مبدأ «الفرصة الثانية» يجب أن يكون حاضرًا في ذهنك على الدوام،

فكرة أن كل حمولتك الثقيلة من المخاوف والذنوب والأخطاء والعثرات التي قمت بها، يمكن أن تكون ماضيًا في أي لحظة.

مهما كان حجم الفوضى، وثِقل إرثك المخزي، فإن ربًّا تسامح مع فكرة أن يتطهر قاتل تُحاصر مُخيلته صور ضحاياه المئة لَبَاعثٌ على أن نكفر بأي فكرة أو رأي أو إحساس كاذب بأن هناك أخطاء يمكنها أن تُنهي موقفنا في الحياة.

الله ليس عصبيًّا مثلنا، حاشاه، لديه ـ ﷻ ـ حساباته الخاصة في التعامل معنا، رحمته دائمًا تسبق عدله فضلًا عن غضبه، وحلمه على الضالين من عباده تفوق قدرتنا البشرية على الفهم، لا شيء في صفات هذا الإله يمكنها أن تُربكك وتُخيفك.

عذابه، وانتقامه، وجبروته ليست هي أصل صفاته التي يتعامل بها مع عبيده، وإلا لَما وجدتَ على أرضه من يكفر به على أقل تقدير، الأمر أعظم شأنًا من هذا بلا شك.

أنت مأمور بأن تُكمل السباق لآخره، لا يوجد داعٍ لليأس، عِش كل أحوالك النفسية: ابكِ لو أحببت، احزنْ لو شئت، تألمْ من وجعك وَارْكَنْ لخلوتك لبعض الوقت، ثم احذر أن تكون هذه هي أيامك كلها، وديدنك المستمر...

افتح نوافذ حياتك ليوم جديد، وفرصة جديدة، ومحاولة إضافية...

اسخر من ضعفك، وسذاجتك، وعدم توفيقك... ليست سخرية ازدراء واستخفاف، وإنما سخرية الحكيم إذ يتعجب من التدابير، ويرى في كل وجه ملاحظة للتأمل، وعبرة للقادم، وضحكة نخفِّف بها أنين الوجع وإلحاحه.

احترم ضعفك الإنساني، الناس يتفاضلون برصيد الستر أكثر من تفاضلهم بأرصدة البنوك.

الستر يَرفعُ حين يغطي بردائه إنسانًا، ويذل ويكسر حين يُرفع عن تعيس، وما دام الأمر كذلك، وما دمنا جميعًا عبيد ستره علينا، فلنفهم إذن أن ضعفنا هو ضعف نعرفه وقد ننظر إلى أنفسنا من خلاله، ونقيم ذواتنا به، وهذا خطأ طالما وقعنا فيه!

ضعفك يا صاحبي ليس أكثر من دليل على إنسانيتك، ومقاومتُك وكفاحُك ومجاهدتُك لهذا الضعف دليل على سمو إنسانيتك تلك ورقيِّها.

إيَّاك أن تقارن نفسك، التي تَخبرها وتَعلم مواطن ضعفها، بنفوس الناس التي لا تعرف عنها إلا ما سمحوا لك بأن تعرفه.

أقدار الناس الحقيقية نعرفها بعد العرض على الله؛ هنا الكل متساوٍ في حق

المحاولة، ليس هذا وقت التقييم إلا لو كان من باب مراجعة الحساب والتجهز لبداية جديدة.

وليكن لك مع الله سرٌّ لا يعرفه إلا هو، خذ عهدًا ألا تسفِّه أحلام البشر مهما كانت ساذجة.

التزم بأن تمد يد عونك، إذا ما وفَّقك ربك، لكل متعثر، أخلص النية أن تكون سببًا في مد أرزاق الناس لا قطعها، وتجهز لاختبار الله وأعدّ عُدَّتك في تجاوزه والنجاح فيه.

يا صاحبي... أبناء «الفرصة الأخرى» هم أبناء الإنسانية كلها، ومن يُحرزون أهدافًا من تسديداتهم الأولى، هم عيال الصدفة، وبما أننا لسنا من هؤلاء المحظوظين، فواجب علينا أن نسدد تسديدة ثانية، وربما ثالثة أو رابعة.

صدِّقني سيظل المرمى ثابتًا، والمباراة دائرة، وفرصتك في تسجيل الهدف مرهونة بمحاولاتك المتكررة، وتعلُّمك السريع، وإصرارك الذي يرفض كل من يحاول إنهاء مباراة حياتك قبل أوانها!

واصطنعتُك لنفسي

الخالق يصطفي أنبياءه، هذا أمر لا شك عندي فيه، تبليغ رسالة الله ـ ﷻ ـ يُختار لها أشخاص استثنائيون، تجتمع فيهم أصالة المنشأ، ونُبل السلوك، ونظافة اليد، وطهارة اللسان.

وعليه، لا دهشة هنا حينما نقرأ قول ربنا لنبيه موسى، عليه السلام: «وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي»، إلى أن يقول جلَّ اسمه: «ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يا مُوسَىٰ * وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي».

موسى، عليه السلام، ببساطة رجل مصنوع على عين الله وتحت إشرافه المباشر، إن جاز القول، فهل من المنطقي والأمر كذلك أن يكون موسى «صنيعة الله» قاتلًا لنفس ولو بالخطأ؟ وأن يسبقه غضبه لدرجة أن يُلقي ألواحًا قد كُتبت فوقها

كلمات ربه التي تلقاها منه مباشرةً؟ هل من المقبول من رجل بمثل هذه النشأة الاستثنائية أن يكون عصبيًا، ويهرب، ويرتبك، ويخاف؟!

نعم، منطقيٌّ جدًّا، وعظيم جدًّا كذلك...

عظيم ربنا سبحانه حين يرينا الأمر بوضوح وبساطة، أن يُفهمنا عبر آياته أنه لن يستثني أحدًا من فكرة النَّقص، ولن يعيش على أرضه أو يستظل بسمائه شخص كاملًا مبرَّأ من الخطأ والزلل مهما كان.

حتى النبي الذي قال عنه إنه قد صُنع على عينه به نقاط ضعف!

بل في أمور اليقين والإيمان، نرى أن خليل الرحمن إبراهيم، عليه السلام، يطلب من ربه أن يريه آية منه: «رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي».

إبراهيم هنا يُكلِّم الله فليس من المنطقي أن يكون عنده أي شك في وجوده غير أنه يريد الوصول إلى مرتبة يقينية أعلى، وهذا يعني ببساطة أن خليل الرحمن - وتأمَّل في لقب الخليل وطبيعة العلاقة الاستثنائية - لم يجد حرجًا في طلب البرهان حتى يطمئن القلب للإيمان، فما بالك بمن هم دون ذلك بكثير!

يعاتب ربنا، سبحانه وتعالى، نبيه محمد ﷺ في القرآن أكثر من مرة؛ مرة عند

عبوسه في وجه صاحبه ابن أم مكتوم، ومرة ثانية عند صلاته على المنافق عبد الله بن أُبي بن سلول، ويستدرك عليه تعامله مع أسرى بدر...

يعاقب سبحانه وتعالى نبيه يونس، عليه السلام، بإلقائه في بطن الحوت حينما أصدر حكمًا على قومه وتركهم مغاضبًا قبل أن يأتيه أمر الله، حتى إن ربنا اتخذه مثالًا يذكِّر به النبي محمد ﷺ «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُكُن كَصَاحِبِ الحُوت».

وسنجد مثل هذه الأمثلة كثيرًا ونحن نتحدث عن أنبياء الله المصطفين، كأن الله الذي يُحسن كل شيء صُنعًا يخبرنا بأن هناك خدشًا في كل أبناء آدم بلا استثناء.

يقينًا أخطاء العظماء تماثلهم في العظمة، ولا نذكر هذه الأمثلة لنساوي أنفسنا بأنبياء ربنا، فأنا أعقل من هذا، وإنما لأقف عند نقاط أرى من وجهة نظري أن الحق سبحانه وتعالى يخبرنا بها، ومنها:

أولًا، أنْ لا ضمانة على صواب رؤية أو سلوك أي شخص مهما كان.

أنبياء الله كان لديهم اتصال مباشر مع السماء يصحِّح لهم مسارهم طوال الوقت، أما الرموز والكبار والقادة والزعماء فلا مندوحة لهم إلا اجتهادهم الشخصي، ومن العبث والحمق أن نصرف جهدنا إلى تبرير مواقفنا الشخصية

أو مواقف مَن نحبهم ونحترمهم، أونتعامل معهم على أنهم مُلهمون حكماء لا يخطئون.

ثانيًا، موسى كليم الرحمن، وإبراهيم خليل الرحمن، ومحمد ﷺ هو حبيب الرحمن، مما يعني أن الخطأ - إن جاز لي التعبير - الذي قدَّره سبحانه كي يقعوا فيه كان عَرَضًا خاطفًا، بينما كل أعمالهم كانت عظيمة ونبيلة وشريفة، ولذلك نحترمهم، ونقدِّسهم، ولا يجوز لأحد منّا - شرعًا وعُرفًا وعقلًا - أن ينال منهم أو يسمح لنفسه بأن يساويهم بباقي خلق الله.

نحن نقف على حكمة أفعالهم، ونحاول التأسي بهم في كل حياتهم...

لا سيما أن أنبياء الله حينما وقعوا في ما سجَّله القرآن من هنات كان بسبب غيرتهم وغضبهم من إعراض الناس عما ينجيهم، لكنّ الضعفاء منّا قد يُخطئون أخطاءً جسيمة وكبيرة، وهذه الأخطاء يجب ألا تكون أبدًا هي النهاية.

ولو رفض الواحد منّا أن يستمع أو يقبل من حكيم أو مفكر أو رجل دين لكونه قد أحدث ذنبًا أو وقع في خطأ فنحن إذن نرفض حكمة الله، ونصطدم مع ناموسه في الحياة، وسندفع ثمن هذا غاليًا.

لا شيء أبأس من إلحاق العصمة بشخص أحببناه، سيُرهقه هذا كثيرًا،

وسيجعل صدمتنا فيه حال وقوعه في ذنب أو حتى اجتهاد خاطئ دافعًا لرفضه والكفر به وبأفكاره في الجملة، وهذا سلوك مؤذٍ للجميع.

ثالثًا، أن المشقة والابتلاء ليسا دليلًا على شيء سلبي بالضرورة، الذين اصطفاهم الله وصنعهم على عينه كانوا في تعب وكبد طوال الوقت، وتكتنفهم المشاعر السلبية كالغضب وعدم الصبر والتسرع، ولو شاء الله لَأَكمَل لهم عصمتهم وَلَأراحهم في مشوار حياتهم، لكنه لم يفعل ذلك، لنعلم أنه مهما كان قربك من ربك وإخلاصك له إلا أن عقبات مشوارك لها دلالات غير ما يوسوس بهما شيطانك، وأن عيوبك الشخصية وتعثرك في مشوارك يحتاجان إلى المجاهدة الدائمة لا إلى اليأس والقنوط.

رابعًا، مشاعرنا السلبية يجب ألا نعاندها.

موسى عليه السلام وإذ قتل نفسًا بالخطأ كشف الله لنا خبيئة مشاعره «فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ» ثم دعا الله أن ينجيه من القوم الظالمين كي يطمئن قلبه ويرتاح.

أهل التخصص من علماء النفسي يرون أنه حتى المشاعر السلبية تحمل بداخلها قيمة إيجابية لو أحسنَّا فهمها.

خوف موسى، وندم يونس، واستغفار سليمان، هي لحظات ضعف إنسانية ألجأتهم إلى الاحتماء بالله، لأنهم يدركون جيدًا أنْ لا فرار منه إلا إليه.

ببساطة، لا تخجل من خوفك ولا ارتباكك.

اعترفْ بهما واجعلهما وقودك في مشوارك إليه سبحانه.

وأختم بما بدأت به، أن الله الذي خلق ملائكة لا تخطئ خلق أنبياء، وإنْ عصمهم من الوقوع في أخطاء كأخطائنا المعيبة، إلا أنه قدَّر لهم بعض الهنات التي لا نعدّها في عُرفنا أخطاء تستحق الانتباه، لكنها استحقت عتابًا منه سبحانه تجاههم، ومع ذلك فإننا ومع أخطائنا في سباق لمرتبة أعلى من مرتبة الملائكة المبرّئين من كل ذنب وخطيئة.

وعليك يا صاحبي وأنت تمضي في مشوارك ألا تبذل جهدًا في تبرير أخطائك وإنما في إصلاحها، ولا تتوقف عن الإيمان بالله أو تشكِّك في موالاته لك مهما كثرت عقباتك؛ فحبه لك كبير حتى مع العراقيل التي تواجهها، ولا شيء أبلغ من أن النبي الذي اصطنعه ربنا لنفسه كان طريقه مرهقًا، واجتهاداته البشرية ليست موفَّقة طوال الطريق، ومع هذا فهو في أسمى مراتب الشرف في الدنيا، وأعلى درجات الجنة في السماء.

مكتبة
t.me/t_pdf

الخروج الآمن

عندما انتهيت من كتابة الفصول التي قرأتَها لتوِّك فعلت ما أفعله دائمًا عندما أُنهي عملًا جديدًا؛ أرسلته إلى جملة من الأصدقاء الذين أثق بهم، فكان لهم حزمة ملاحظات أفادتني في مراجعة الكتاب، فالشكر لهم بعد الله سبحانه وتعالى.

غير أنهم أجمعوا على نقطة واحدة وهي الشفقة عليَّ، وخوفهم من أن يتم فهم هذا الكلام بشكل خاطئ، وأن تعرُّضي لأفكار بنيوية تحكم أفكار جمهور كبير يمكن أن يطالني من ورائه أذى نفسي ومعنوي وربما أكثر من ذلك، لا سيما أنني أدفع ثمن أفكاري طوال السنوات الماضية بشكل طال رزقي وأمني

الشخصي، على الرغم من كوني كاتبًا أدَّعي أن ما أقوله ليس كبيرًا ولا عبقريًّا ولا جديدًا على الناس.

أنا شخص أؤمن بأهمية الأسئلة أكثر من إيماني بأهمية الإجابات عنها، الطبيب الناجح ليس مَن يصف العلاج فهذا أمر يقدر عليه غالب الأطباء، وإنما تشخيص المرض هو جوهر الأمر كله، وفي كتابي هذا اجتهدت في طرح الأسئلة وحاولت أن أرفع سقفها قليلًا لإيماني بحتمية الاشتباك مع ما نراه حولنا وفينا من أفكار وظواهر مؤذية...

وأنا رجلٌ اقترب مني الموت حتى كاد يُركبني عربته لولا أن قدر الله كان حاضرًا فأمهلني فسحة أخرى، وعليه فإنني أعلم جيدًا أنني سألقاه في نهاية المشوار، وأن ما كتبته سابقًا وأكتبه الآن سيجعلني حجيج نفسي يوم القيامة، وهذا أمر مرعب إلى أقصى درجة، وما يُطمئنني بعض الشيء أن نية المجتهد ظلت حاضرة بداخلي، ودوافع الإصلاح كانت محرِّكي الأساسي.

لقد قلت لأصدقائي ـ وفيهم كُتاب ومفكرون ذوو شأن ـ إنه لا شيء في ما كتبته يستحق من الناس الغضب، فضحكوا! وأخبرتهم بأنه ما دام المغزى قد وصل إليهم فسيصل إلى باقي الأصدقاء من القراء، فاعترضوا بحجة أن معرفتهم السابقة بي أسهمت في فهمهم لما أكتبه.

دعْكَ من أن هناك من سيترك براح الفكرة وينشغل بإشعال الحرائق حولها، لا سيما أن اللغة التي تم تعاطي بعض القضايا من خلالها قد لا تكون مألوفة على أذهانهم، ولا تعتمدها أدبياتهم.

والحقيقة أن الباب الآمن الذي نصحوني بأن أخرج منه صار ضيِّقًا جدًّا عليَّ، والحياة لم يعد فيها وقت لمزيد من التجمل والتأنق، ومأساتنا ثقيلة علينا بما يجعل اللف والدوران حول ما نحن فيه خيانةً واستخفافًا وخطيئة.

لا خروج آمنًا لنا في الجُملة إنْ قرر كل واحد منَّا أن يخرج آمنًا بنفسه.

نحن ننتمي إلى دين يطالبنا بأن نقرأ في كل صلاة دعاء «اهدنا الصراط المستقيم» وليس «اهدني الصراط المستقيم»، وجعل صلاتنا في جماعة هي الأصل، فكيف يمكن أن أخاف منك وأنت إلى جانبي تردِّد معي «آمين» حتى إن أزعجتُك لبعض الوقت...؟!

ومع ذلك فإنني أعتذر مُقدَّمًا عن أي صدمة غير مريحة قد أكون سبَّبْتُها لك في أثناء القراءة، وأتمنى أن تتساهل مع اللفظ إذا ما وصلك المعنى، دون أن يمنعك هذا من إبداء النصح والتقويم لي إن شئت ذلك.

وعلى الله قصد السبيل

كريم الشاذلي · القاهرة · نوفمبر 2020

لن تستطيع معي صبراً

يقولون أن النائم لا يستطيع أن يوقظ نائما
عليه أن يستيقظ أولا..
مع ما سيصنعه استيقاظه من جلبة ستزعج النائمين
هو وحده سيدرك أن الوقت قد تأخر
وأن نومهم قد صار خطرا
النائمون يفقدون أحاسيسهم وإدراكهم
وينفصلون عما يحدث حولهم
وهنا يتحتم على من استيقظ أن يهزهم
برفق .. أو بعنف

كريم الشاذلي

telegram @t_pdf

DAR AJIAL
دار أجيال
محمول : 01224242437 (2+)
www.dar-ajial.com